بن شريط عمر

الـجريـمـة الـبـيـضـاء

رواية

منشورات المثقف

الطبعة الثانية

السداسي الثاني 2017 م – 1438 هـ

ردمك: 978-9931-663-70-6

العنوان: رقم 11 شارع الإستقلال - الجزائر

هاتف: 386 497 675 213+ فاكس: 75 65 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

تصميم الغلاف وتنسيق: كريم بن أحمد

التدقيق اللغوي: وفاء تفاح

إهداء:

-إلى الكادحين في هذه الحياة، إلى من فقدوا الأمل في هذا الوسط وينثرون ألف لعنة مع كلّ "صباح الخير" ينطقونها.. إليكم أصدقائي.

-إلى بن أحمد كريم، بن الريم محمد.. عائلة أصوات والأستاذة "سميرة منصوري".

الفصل الأوّل:

السّجن

إنّك كعرائس الماريونيت! ترقص إجلالا أمام المتحكّمين في خطواتك لتبكي ليلا من ألم الحذاء..

عندما تحاول الصّراخ سيلفّونك بوشاح المال، وسيرسلون لك برقيات التّهديد..

اقترفت خطأ إبراز قدرتها في التغيير لتَقضي ما تبقّى من عهدتها تجمع شتاتها المتناثر؛ تتوسّل شعبها أن يدافعوا عن وطنهم، مستصغرة خيانتها بقلب يحطّم الحجر.. منادية بالوطنية كي تحتميَ بصولجان قوّة الثّائرين على التّراب والميّتين من أجله..!

رومية سعدي

من رواية "ضحيّة حرب"

تمرّ عشر دقائق أخرى.. الباب موصد بإحكام، يكاد يتآكل من الصّدأ ولكنّه يبدو من المعدن الفرنسيّ المحكم، ولمبة صغيرة من الطّراز القديمِ تتوسّط الغرفة، متوهجة باللّون الأصفر الخافت.. لا أعلم ما الدّاعي لكلّ هذا الإحكام وأنا مكبلّ في كرسي وكأنه مسروق من مصحّة عقليّة أو ثكنة ما؛ فهو يشبه لحدٍّ كبير تلك الكراسي الكهربائية المتوحشة..! غرفة خالية بجدران مقشّرة عليها طلاسم غريبة برموز غير مفهومة وأرضية إسمنتية قاسية.. أمامي طاولة خشبية مستطيلة مثل التي توضع في غرف الاستجواب لجهاز الأنتربول والأمن

الفيدرالي.. ولكنّ الأمر هنا مختلف قليلا! هذا اللّثام واللّباس الهمجي لا يمثل أيّ جهة..! ربّما أنا في إحدى قواعد الإرهاب؛ جماعة مسلّحة متمرّدة، أو ربّما منظّمة سريّة...! لا أستطيع التكهّن إن كانت حكوميّة أم لا..! استيقظت فجأة في هذه الغرفة صبيحة اليوم بدوار رهيب أفتك بكل محاولاتي البائسة قبل سويعات من الآن لفهم الأمور.. سويعات لم أرَ فيها شيئا ما عدا كتلة جسديّة عملاقة تقدّمت نحوي وهي تطالعني بغرابة وتتصفّح ملامح وجهي جيّدا بنظرات ثاقبة.. لم تلبث طويلا ثم خرجت من حيث أتت عبر هذا الباب المرعب.. جسد مفتول بلباس ريفي محكم ولحية سوداء داكنة عليها لطخات من الحنّاء والكحل يشكّل هالات حول مقلة العين بشكل مخيف.. هل سأموت هنا أم أنّ هناك إجراءات أخرى لقتل هذا الملل والعالم الخفي من التساؤلات المشتّتة التي تعرقلني عن فهم الأمور بالطّريقة الصّحيحة؟

ــأن تموت وأنت تسعى خير لك من الموت كالأرملة متذمّرا هكذا...

***

فحيح ثياب خفيف يقترب من الغرفة.. لم يكن مجرّد وهم فحتّى خربشة المفاتيح تصدح في هذا الرّواق المخيف بصوت متسارع واضح!رواق ضيّق وطويل مليء بالغرف المتسلسلة بشكل متقارب، كلّ ما أعرفه عنها أنّها تفوق المئتي غرفة.. فأنا المدعو "رامو" السّجينرقم b18 معمجموعة من المجانين والحمقى في هذا المبنى الكبير محجتز في غرفة خلف بابها الحديدي المتين رقم "213".. علمت كل هذا بعد تواجدي لأسبوع كامل في هذا المكان المقزّز.. وبنبرة مشبّعة بالقسوة يخرج من بين تلك الشّفاه الثّملة للحارس الرّوتيني صراخ في وجه الجوّ وصياح يمزّق العدم بلطخات من اللّعنات والشّتائم في الفراغ يعكسها الهدوء الرّهيب الذي خيّم في الأنحاء، رواق طويل في سقفه عمود بلاستيكي وبعد كلّ مترين أو ثلاثة يوجد مصباح قديم، ومن بين كلّ عشرة مصابيح مصباح متوهّج وآخر يرتعش وكأنّه مريض بزكام الكهرباء يعطس بين الفينة والأخرى وميضا ويعود ساكنا بعدها.

كثيرا ما ترامت أشلاء الضّحايا في تلك السّاحة خلف النّوافذ، واختلطت رائحة التّراب المبلّل مع عفن الدّماء في هذه الليالي الديسمبريّة

الشّديدة، ها هو ذا الشّيخ المسكين الذي أكل ليلة أمس من السّوط ما لم يأكله طعاما في حياته كلها يُجرّ كحصان هزيل مضنى إلى الحظيرة للتّخلص منه؛ أقصد إلى المقصلة الخاوية منذ أيام..! لم تعد هذه المقصلة في الوسط مخيفة لكثرة استعمالها أمام عينيّ المرهقتين من وراء قضبان نافذتي الصّغيرة، نافذة فيها مثلّث زجاجي مكسور؛ لطالما تخيّلته قطعة مصغّرة لمثلّث "برمودا" لشناعته وما يعكسه لي منَ الخارج؛ منْ إبادة ومجازر وتعذيب.. في هذه اللّحظات تطايرت قطرات الدّماء وصرخة دوّت من فمٍ برأس هو الآن على بعد مترين عن حامله.. إنه السجين رقم "212"

لم أكن أعلم لماذا أنا هنا! أو لماذا أنا مرغم على ارتداء هذا اللّباس البرتقالي الرّث، بهذا الشّريط الأحمر في أعلى ظهري أو بين كتفي -لا يهم-.. حتّى أنّي صرت أفتقد الأغلال حينما يبعدونها عن كاحلي المتعب أو معصمي المليء بالجروح والكدمات في كلّ ليلة..

__الحريّة المصطنعة بنزع الأغلال في السجن أكثر إهانة من الأغلال نفسها..!

هل هذا سجن أم مصحّة عقليّة؟ من أكون أنا أصلا؟ هويّتي مرتبطة باسم موشوم على ساعدي وأرجوحة في ذكرياتي صرت أراها في نومي كلّ ليلة دون أن أعرف عن قصّتها أو لِمَ تطاردني في خيالي هكذا!! غرفة تشبه الكآبة بحدّ ذاتها فليس عليّ أن أشبّهها بالقرف بكلّ ما حملتْ..

أكثر ما يثير حيرتي هو ذاك الجرذ! رفيق السّكن المقيم بالحفرة في تلك الزّاوية.. هل أعدموه لأنّهم علموا أنّي لا أشعر بالوحدة حينما أطارده بكلّ مرح؟ هل رأوه كيف يقرص بأسنانه الصغيرة يدي مما يجعلني أتركه لحال سبيله قليلا من الوقت ثمّ أعود لأسرد عليه الكثير من الأشياء وكأنّه يصغي إليّ عندما أحشره في الزّاوية؟

لحظة..! ما هذه الدّماء على قميصي؟ أحقّا أكلت صديقي الجرذ ليلة أمس أم أنّه كان مجرّد كابوس مخيف؟ ربّما فعلت هذا حقّا..! أنا أتضوّر جوعا منذ أيّام كثيرة ولا أجد أكلا صالحا سوى فرم من خبز فيه دهن غريب وخنفساء متسلّلة شهيّة لم أملك غيرها لأملأ بها خواء بطني برغم روائح الأكل الشهيّة في

الجوار..! أمسية هادئة على غير العادة، يقاطعها نعيق غربان قادمة من بعيد، وبوم قد بدأ يستيقظ لتوّه مع غروب الشّمس هذا.. تقدّمت بضع خطوات نحو الباب المليء بالخدوش الغريبة ولطخات الدّماء في أسفله، قمت برصّ وجهي في فتحته المستطيلة الصغيرة بين القضبان التي تحتويها في الأعلى والمسموح لنا بالنّظر من خلالها.. مرّرت حدقة عيني يمينا وشمالا فلم أر غير بضعة أبواب؛ كان مجال رؤيتي لا يشمل إلّا ثلاث غرف أمامي ونصف باب في الأخير.. ما هذا الهدوء! أتراه يكون هدوءَ ما قبل العاصفة؟ كلّ الأعين من فتحات الأبواب المقابلة تشير بناظرها إلى غرفتي، أو إليّ بالتّحديد! تلطمني بأشعّة بصر مليئة بالعاطفة وكلام كثير محبوس وكأنّها تودّعني.. وفي غفلة من هذا الصّمت الرّهيب تُفتح البوّابة التي أمامي على مصراعيها؛ مصراعها الأوّل هو الباب ذاته ومصراعها الثاني درفة من الإسمنت سقطتْ بجانبي لقوّة دخولهم فسقطتُ أرضا جرّاء هذا، أربعة رجال شداد وكلب قد أعتبره خامسهم لضخامته، وبدأت شحنة الأدرينالين تفوح منّي.. -هناك بعض الإنس لو نبحوا

مزحًا لشعرتُ أنهم قد ظهروا على حقيقتهم أخيرا ولن أشكّ للحظة بأنّهم يمزحون-

لم يتوقّف الكلب عن النّباح ولو لثانية في الطّريق، مهلًا..! أيّ طريق؟ إلى أين أُساق؟ لم أخرج من غرفتي إلا لغسل بعض الملابس الخاصة بالحرّاس قبل أيام قليلة لا أتذكّر منها غير الرّجل المُقعد الذي صادفته في ذاك الطريق..

قبلاً كنت أظنّ أنّ طوق الكلاب هذا لا يخصّ البشر..! تبّا...!بدأ يعيق تنفّسي! لكن لماذا هم ملثّمون هكذا؟ ألم يحن وقت التّعارف وتكوين الصّداقات هنا بعد؟ قد طال مكوثي كثيرا ولم أتكلّم إلا بـ "نعم" ونادرا بـ "لا".. أمشي مكبّل الأيدي إلى أسفل ظهري وطوق حول رقبتي يشدّه حارس غليظ أمامي يجرّني إلى حيث لا أدري، ورواق تخرج من فتحات أبوابه الكثيرة المستطيلة سواعد شرسة منها من تحمل علب طعام فارغة تثير بها ضجّة عبر ضربها بالقضبان الحديدية وأخرى تلوح بقسوة محدثة جلبة لم أسمع مثلها في الجوار.. "رامو.. رامو.. رامو.."كان هذا هو الاسم الذي صرخت به تلك

الألسن الغاضبة، وكنت أبتسم لهم كمريض نفسي من الدّرجة الأولى؛ أمثل دور القسوة والتّماسك، أحدّق في الحرّاس حولي بشكل متواصل وأتأمّل تلك الوجوه بطريقة غريبة وكأنّها بالعرض البطيء... انتهى الرّواق أخيرا.. ماذا يعني هذا؟ وهل هذا النّور الخافت لشمس الغروب يدلّ على شيء ما؟ هل هي خرافة الحرية التي يتكلّم عنها جيراني في الغرف المجاورة كلّ يوم؟ كنت باهتا في الجو وبالكاد أُبعد جفنا عينيّ عن بعضهما البعض بسبب هذا الكمّ الهائل من النّور الذي لم أعش فيه منذ زمن ولم أمشِ تحت أشعّته المنسدلة منذ أيام كثيرة بعيدة.. رفعت رأسي لأشاهدني؛ هل أنا آمن لثوانٍ أخرى من المشي؟ ولكن هذه المرّة لم أستطع إنزال بصري إلى الأرض من جديد.. ما هذه الحشود الغفيرة التي تشكل دائرة كبيرة في هذه السّاحة المألوفة..! سرعان ما علمت أنّها تلك السّاحة التي كثيرا ما استمتعت بالحمائم البيضاء والتصنت عليها من نافذة غرفتي هناك في الأعلى كما شاهدت فيها مختلف أنواع القتل والإعدام.. والإفراج عن البعض مرّة أو مرّتين ربّما والكثير من العذاب أيضا.. للوهلة الأولى شعرت أنه سيتمّ ترقيتي لأصبح حارسا منهم بهذه الشّارة السوداء

الكبيرة.. كم كنتُ أبلهًا حينها..! إن هذا المنديل الأسود الذي رُمي فوق رأسي حتّى وصل أسفل رقبتي وشُدّ حولها قليلا يشبه ذلك الذي اِرتداه الشّيخ الصّامت صبيحة اليوم من الغرفة التي قبلي عند إعدامه.. سواد هنا، سواد هناك وسواد في كل مكان..! كان مجال رؤيتي مقصورا على تأمل غياهب الظّلام تحت هذا المنديل الذي يحتويني ويغطّي رأسي بأكمله.. فجأة أسمع صوتا خشنا بقربي وأنا أُجرّ نحو الأمام.. إلى مكان ربّما أقلّ وحشيّة من هنا؛ وربّما إلى منصّة الإعدام!خطوات أخرى تقودني إلى مكان لا أعلمه.. مرّت عشر دقائق على هذا الحال، في كلّ خطوة أشعر ببرودة تختلجني، قشعريرة رهيبة ومذاق الاحتضار لا يفارق حلقي.. ومع كلّ خطوة أشعر بالهلاك يقترب أكثر فأكثر، استمتعت بالهواء لثوان قليلة قبل أن يرتطم بي سوط غليظ ليعود أدراجه محمّلا بصرخة من أعماق حنجرتي والقليل من قطرات الدّماء التي ظهرت على قميصي، لم أتنهّد بالشّكل الكافي لالتقاط أنفاسي لتفاجئني الضّربة الثّانية حتّى وطِئت ملامس السّوط مجدّدا كتفي ولأشعر بكهرباء شديدة التوتّر دامية تتخلّ ّل خلايا جسمي وتسري بعروقي.. ضربة ثانية كانت مرفقة

بلكمة أردتني أرضا بعد أن فقدت التّوازن.. ارتخت عضلاتي في الأرض معلنة استسلامها لضربات قادمة؛ والأشد ألما ألّا تدري من أين ستأتيك الضّربة التّالية.. ولا مجال للرّؤية عبر هذا المنديل الأسود اللّعين..! تمّ حملي لأعود منتصبا مرة أخرى.. وفجأة يدوّي صوت بوق لسيارة ما في الجوار.. لامست خطوتي التّالية معدنا لهيكلة غريبة.. صاح الحارس في أذني ودفعني إلى الأمام بقوّة حتى اصطدمت بها، صرير الباب يدلّ على أنها مدرّعة أو شاحنة قديمة.. صعدتُ ببطء محاولا استيعاب المكان عبر مخيّلتي الواسعة.. -البصر لا يقتصر على مقلة عين وحدقة؛ قد يكون العقل والقلب سويّة منظارا سويّا في أحيان كثيرة- يرتفع صوت المحرّك المزعج وتنطلق هذه المركبة إلى الأمام، دقائق هي الأخرى كانت كافية للوصول إلى المكان المقصود، ولا أشك إطلاقا أنّنا غادرنا المبنى أو هذا السّجن؛ أو كما كان يطلق عليه في هذا الوقت القصير جدّا.. مشيت مع هذا الموكب بين سواعد قوية تشدني بقوة لتقودني للمقر المنشود وما يزال المنديل الأسود على وجهي يعيقني عن النّظر.. على الأرجح نحن الآن في رواق ما.. الأرضيّة تبدو بلاطية والمكان هادئ للغاية باستثناء صوت ضرب

الأقدام عليها.. يهزّ الحارس جسدي للخلف قليلا مثبّطا بذاك سَيري وكأنّه يجبرني على التوقف، طرقات باب خفيفة يلوح صداها في الأنحاء ومن ثَمّ مقبض يدار ويتحرّك شخص ما من الخلف ويدخل الغرفة المجاورة.. ثوان قليلة وأسمع أعقاب الحرّاس تتّجه إلى الخلف حتّى اختفى وقع أقدامها في الأفق.. آه... بقي شخص واحد وهو الآن يدخلني إلى الغرفة بعد أن نزع الكيس عن وجهي.. صرت أغمض عيني تارة وأفتحها تارة أخرى جرّاء الوميض المتوهج في الغرفة والذي أفقدني تركيزي.. لاحظت القليل من الرّجال، خزانة، نافذة و... فركت عينيّ بتوتّر وأعدت النظر... اتّضحت الصّورة في الأخير.. غرفة طويلة تكتسي جدرانها خزانات كثيرة ولوحات فنّية جميلة، عَلم كبير غريب وستار أحمر في الوسط يؤدّي إلى المكتب المقابل، حيث يقف شلّة من الرّجال المسلّحين في هذا المكان الأنيق والفاخر جدّا.. الظّاهر للنّاظر هو أنّ هذا الرّجل المعاق والمُقعد القابع في الوسط قائدهم؛ جلسته وتمركزه بين الجميع تدلّان على هذا.. مهلا! إنّه نفسه؛ ذاك الشّخص الذي شاهدته قبل أربعة أيّام على نفس الكرسي عند مدخل غرفة غسل الملابس..! لا أدري كيف تمكّن سليل

الكرسي المتحرّك هذا من تسلّم الإدارة هنا وهو لا يقوى حتّى على الكلام! ولماذا لا يبرح الكرسي هو الآخر ليرتاح قليلا في سريره..؟ هل سأراه يوما خامسا وسادسا؟ ربما! هناك الكثير من الأسرار في هذا المكان.. وأرجح أن هذا الرجل الذي يقف منتصبا بجانبه والذي يشبهه لحد كبير له نفوذ هنا، وربّما هو من يمارس السّلطة نيابة عنه.. إنّي أراه المتحكّم في زمام الأمور هذه الأثناء مع القليل من التحفّظ الغريب.. صادف أن اسمه "أليغري" بنطق حرف الغين جيمًا باللّهجة المصرية حسب ما تشير إليه تلك البطاقة في ياقة قميصه.. أليس عليهم تغيير هذه التفاهة؟ بدأت أشكّ في أنهم مجرد ديكور (لفارتينت) محلّ للصّفقات السريّة.. ونحن الباعة من السّجناء مجرّد شعب عليه التسوّل للخلاص، للحرية..

يا ترى ما هي الأكاذيب التي سيتلونها على مسامعي الآن..؟ وما هي الوعود الخائنة التي ستطلقها هذه الحاشية من الرّجال في هذا المجلس الرسمي؟

فجأة يتكلّم هذا الكهل الوسيم الضّاحك أو السّيد "أليغري" -كما هو مكتوب-:

-السجين رقم b18، رامو.. الغرفة 213؟

أومأت برأسي للأسفل قليلا مشيرا بـ "نعم"، ثم أردف بنبرة متسلّطة:

-عندما يتكلّم النّظام عليك الإجابة بصريح العبارة وتُتبعها بكلمة سيّدي مباشرة أيها الأبله..

حاضر سيّدي..

-السجين رقم b18، رامو.. الغرفة 213!..

نعم سيّدي.

كانت لعنة الذلّ تفتك بمشاعري وتوقظها محرضة إياها على افتعال كارثة لا تُحمد عقباها، لكنّ الحرب قذرة..! تتطلّب الهدوء..

يرفع ناصيته قليلا أمام الجميع مشيرا لهم بتساؤل وكأنّه يقول هل أبدأ في الكلام؟ ثم يشرع قائلا:

-باسم النّظام والسّلطة المتحكّمة.. وباسم القائمين على هذا المبنى الكبير.. المبنى الذي يحمل الكثير من المجانين والمرضى والشخصيّات المتمرّدة وكلّهم بجرائم بيضاء لا يعاقب عليها القانون.. إلا قانوننا الخاص..! هل تريد معرفة تهمتك؟

نرى بأنّك خطر على سيرورة البنية الاجتماعية.. ونرى بأنّك قادر على إحداث تغيير، ربّما مفيد نوعا ما.. ولكن نحن نطمح إلى دحض الوعي بين عوامّ الناس.. أظنّك لاحظت دعمنا للفنّ الرّخيص بأموال طائلة.. غناء، حفلات، ملاهي وسينما دون المستوى وخاوية من أيّ رسائل.. وأنّنا نلهي الجميع بقليل من الرّياضات الغبيّة.. وفي المقابل نحارب الثّقافة والفن الراقي بكل ما حوى.. من منكم لم يرَ تلك السّخافة التي مورست ضدّ قامة كتابية رفيعة باسم الفنّ أو "كاميرا كاشي" كما يطلق عليها أراذل النّاس في الفترة الماضية؟ أرى أن عينيك قد اتسعتا قليلا هه! نعم، أنا من كنت حاضرا في تلك الوقفة والتظاهرة للحدّ من هذه التفاهة بصورة كاذبة ولكنّكم أنتم التفاهة في الأخير.. قد لا أكون السّبب الحقيقي في كل هذا؛ ولكنّ البنية الأصليّة لنا تقول بأنه كذلك.. فأنا أتكلّم باسم المبنى كلّه هذه اللّحظة.. ولا تقلق بشأن أيّ شيء..!

لسنا بذاك الغباء لنخبرك بكلّ هذا دون مقابل.. والدّليل على أننا نسيّر الأمور بالشّكل الصحيح هو أنّنا لم ندع خروج شخصيّات عديدة يؤثر على المستوى الوطني أو العالمي بشكل كبير.. ولكي نسدّ هذه الثغرة قدّمنا الدّعم لبعض الشّخصيات للظّهور على السّاحة الدّولية كمهرج طرب ضحوك تافه وشخصيات أخرى لا تأثير لها، والرّياضة لأنّ لها شعبية قد تشبع متعة الجمهور وجيوب اللّاعبين.. هل تصدّق بأنّ أخي هذا غير قادر على التحكم في كرسيّه المتحرّك بنفسه! كيف سيحرّك إذًا مبنى عظيم كهذا؟ لن أقول لك أنّني أنا أو أحد هؤلاء الرّجال في القاعة نحرّك الأمور خفية، ولن أنكره في نفس الوقت، ففي الحالتين لن تستفيد شيئا.. على كلّ حال إنّ الأمور مسيّرة بطريقة تلائمنا..

لن أسألك إن كانت الخزينة هنا مليئة أم لا.. فستأكل الفطائر بالخنافس ما حييت.. تسمونه تقشّفا أليس كذلك هه؟ وإن احتجت مالا سنعطيك إيّاه بغرض الاستفادة معك من مشروعك.. ربما تبني قاعة رياضة في الساحة أو تشحن غرفة غسل الملابس بمعدات جديدة، ربما وربما... الاحتمالات كثيرة... إن أعدت المال في الوقت المحدد وبنسبة زيادة قليلة سنعتبرها استثمار داخلي

ونعطيك امتيازات بها تستطيع الإفراج عن نفسك من هنا إن أنت عملت بها بالشكل الصحيح.. وإن لم تعد المال في الأخير مرحبا بك في الطابق السفلي من السجن.. العالم كله يرضع من ثدي المبنى ولم ينتهِ الحليب بعد.. هل تدرك هذا ؟

من أكون أنا ؟

ليس عليك أن تعرف عن هويتي أيّ شيء فهذا لا يهمك أيضا، ولكن في هذا الصياغ أخبرك بأني لم أولد في هذا المكان القذر..! دعك من هذا.. هل ننتقل إلى الجانب الآخر من الكلام ؟

الجانب الذي ستعرف منه لماذا أخبرك بكل هذه الأسرار بلا تحفّظ.. أنت تدرك جيّدا بأن إشارة إصبع فقط كفيلة بجعلك من الماضي؛ لتكون جثة هنا.. إذًا أنت الآن في محل اختيار.. بين هذه الإشارة أو... انظر إلى النافذة خلفك، هل تشاهد تلك البوّابة الكبيرة من بعيد! شاحنات ضخمة ومعدات قتالية لا مثيل لها.. والكثير من الجنود الذين لن تمر من بينهم حيّا إلا بمعجزة من الله..

ماذا لو أعطيتك تأشيرة الخروج سالما معافىً؟ لا تقطب ملامحك هكذا، كل هذا ليس بالمجان..!

في هذا العالم عليك أن تخاف من الأمور السّهلة في أغلب الأحيان، وأن تدرك بأن لكلّ شيء ثمن؛ وللحصول على ما أردت عليك دفع آخر مقابله ولتتعلم التخلّي بسهولة عمّا تحبّ لأنّك ستضطرّ دوما لترك شيء ما مُكرهًا أو غير مكرهٍ في سبيل الوصول..!

هل تريد أن تعرف المقابل؟ حسنا، استمع لهذه التّعاليم جيدا.. لقد تصفّحنا ملفك ورأينا أنك تملك تشققًا صغيرا في أحد عظامك؛ في ساعدك تحديدا.. سنقوم بكسر السّاعد وإعادة تجبيره بالطريقة التقليدية.. ونعبّئ الفراغ الرّابط بين شقي العظم بقطعة ذهبية صغيرة، وجهاز استشعار صغير جدا لاقتفاء أثرك وتتبعك أينما كنت، وسيرافقك إلى الأبد.. هنا تضمن حريتك.. ونضمن راحتنا من صعلوك مثلك.. بالإضافة إلى القليل من المهمّات التي عليك إنجازها والتي سنعلمك بها لاحقا.. عليك الإجابة الآن بـ "نعم" لنبدأ في الإجراءات

الموالية.. أو بـ "لا" وتنال رصاصة باردة تخترق جسمك الهزيل هذا فتحرقه.. في يدك متسع من الوقت لتقرر "خمس ثواني" لا غير...

يا الله...! ما هذه الورطة..؟ هل هذه الثواني كافية لتقرير مصير حياتي؟ تمر الثانية الأولى، صار العرق يتصبّب من ناصيتي بشكل واضح.. خمس ثواني وكأنها خمسة قرون في هذه الأثناء.. ما بين موت ومصير مجهول.. ثانية أخرى تزيد ارتباكي وكأن الوقت صار جامدا لأشعر بثقله هكذا.. هل أوافق على مغامرة لا أدري ماهيّتها أم أموت وأنهي اللّعبة؟ لم يتبقّ في يدي إلا ثانيتين ويرفع السيد "أليغري" يده للرجل هناك مشيرا له بالاستعداد وحمل السلاح.. الثانية الأخيرة، تشربت فيها هواءً بحجم الغرفة كلها بتنهيدة كبيرة عميقة وبإحكام غلق عينيّ بقوّة منتظرا تلك الطلقة.. الأجزاء الأخيرة من الثانية تنقضي في هذه اللحظة.. وقبل أن يرفع السيد يده ليفرقع إصبعه بابتسامة خبيثة...

-نعم، نعم سيدي.. أنا موافق

هذا ما صرخت به في أخر لحظة معلنا الموافقة على الخوض في لعبتهم الخبيثة...

***

يا ترى ما الذي فعلته لأنال كل هذه الأهازيج المهينة؟ لم تمرّ لحظة مذ عودتي إلى غرفتي اللعينة هذه قبل مراسيم الخروج من هذا المبنى إلا وسمعت صيحات من الغرف المجاورة تنعتني بالسّافل، ماسح الأحذية (الشيّات) الحقير وغيرها.. ألا يصدّقون أني دخلت إلى قاعة الرئيس وخرجت سالما! أعذرهم.. لقد عهدنا كل من يمر من الجهة الأخرى للرّواق يموت لا محالة.. لا أدري إن كنت محظوظا أم أنه هناك نية خفية وراء اختيارهم لي..! على كل حال هذه آخر صبيحة لي هنا.. وسأتأقلم مع هذا الجبس الذي بيدي بمرور الوقت أيضا، مع أنّي ما عدت أطيقه وجهاز الاستشعار داخله يؤلمني قليلا.. السؤال الوحيد الذي ما يزال يراودني هو تلك المهمات الموجهة لي، هل حقا أنا أهل لها؟ والسّؤال الأهم ما هي؟ أم أنها موت على شكل آخر..؟ للموت كما نعلم أشكال

كثيرة.. قد تكون رصاصة تائهة أو أخرى مقصودة، مهمة صعبة، تجاهل أو نظرة حب... على غرار خطورة ما أنا مقبل عليه أشعر بالاشتياق إلى جدران المدينة والحبّ المليء في أحيائها العريقة التي لا أتذكر منها إلا القليل.. فالحبّ لا يقتصر دوما على تماسّ أو انجذاب جسدي أو أيّ شيء مادّي عموما.. قد يكون أكلة في بعض الأحيان..!

ترى هل سيكون الأمر سهلا عندما أحاول التوفيق بين تلك المهمّات وحياتي الشخصية؟ على كلّ حال أولّ مهمّة ستكون غدا بعد مغادرتي وستصلني التعليمات الكافية لإنجازها بالطّريقة الصحيحة.. لم أرد في حياتي أن أكون شخصية تابعة لكيان ما، لكنّ الأمر محتّم هنا ولا وجود لأي أمل في الخلاص منهم إلا بمعجزة ما..

في اللّحظة التي تريد فيها عيش الحرية ستجد نفسك حرّا طليقا ولكن في سجن واسع النّفوذ من دون قضبان ولا أغلال لا غير، وهذا ما أنا عليه الآن!

ولا يمكن القول عن الذّات أنها حرة إذا كانت مقيّدة بحدود، فبينما هناك عالم آخر في كل الأرجاء أنت في مساحة محدودة لك وهذا لا يجعل منك حرّا، تحرّر وسافر بذاتك نحو عوالم أخرى..

تختلف السّجون باختلاف قضبانها، هناك سجن بقضبان حديدية أو بمعدن ما! وهناك سجن بحدود وهمية أخرى يمكنك اختراقها بعمل أو علم أو هدف نافع.. لا لمجرد الاختراق! فلو كان همّك فقط قطع الحدود بأيّة طريقة كانت أو اختيار أصعب الطّرق غير الشّرعية أنت هنا تهب نفسك لروحك الغبيّة من بين ذواتك الكثيرة.. هاجر بهدف سامي وبطريقة تليق بك وبهدفك أيضا وفقط.. في الأخير أنت إنسان وعليك عيش الحياة الحقيقية.

أمّا الحياة الرّوتينية من الدراسة إلى مهنة تدرّ مالا أيّا كان مقداره إلى الزّواج وبعض الأولاد ثم تكريس حياتك لتربيتهم وتعليمهم والموت هكذا بلا أثر أو متعة تذكر فهذا أمر تافه حقّا.. ولا تكون الحياة حياة إذا كانت خالية من الأحلام والأهداف والسّفر والأهمّ الأهمّ الشّغف ودوام شعلته...

أنا هنا لا حياة لي ولا نصيب، مع أنّ هذه الليلة هي الأخيرة لي هنا، في هذه البقاع الوحشية التي تقتل فيك الحياة تدريجيًا.. سأكون قطعة تابعة لهم بوهم من الحرية فقط لأستلّ من بين فكّي الحيوان الضاري لقمة العيش أو تأشيرة العيش أو بعضه!

مهمّات كثيرة سترمى على عاتقي.. منها الصّعب ومنها الغريب والغامض ومنها المستحيل الذي دفعهم لجعلي أغامر بدل الموت.. لأكون ضحيّة للموت سواء نفّذت ذلك المستحيل وفشلت، أو استسلمت وقُتلت..

على كلٍّ إنّي متشوق لأول مهمة، ماذا ستكون يا ترى؟

الفصل الثّاني:

المهمّة الأولى

حين تضطرّ لأن تتخلّى عن أحلامك وتتكيّف مع ما يقدمونه لك فكن على علم بأنّ روحك قد رحلت ولم يبقَ فيك غير الجسد يستعملونه كدمية "قاراقوز" يحرّكونها حسب حاجتهم كيفما شاؤوا..

بوزيدي عائشة إكرام

هل ترى بأنّ هذه الجدران الكئيبة القاسية، والأضرحة المنتصبة بين أشجار التوت في كل مكان والقبر المفتوح بجانب البئر وكذلك حبال المشنقة المتدلية من على سور حديقة المنزل تعود للسيّد "ريكاردو"..؟ "ريكاردو ديل كيز".. قسّيس المدينة الغامض..!! لن تشك للحظة في أن هذا المكان الرهيب يعود لصاحب العباءة السوداء الأنيقة والمصلح الاجتماعي الملتزم...! كلّ ما في الأمر أنه ليس عليك أن تثق بقميص رجال الدّين بهذه الطّريقة العمياء.. فحتّى الشّخص الذي ينتصب خلف ستار الغرفة المظلمة في الكنيسة ليسمع ذنوب النّاس تحت عقيدة "غفران الذنوب" قد يكون مليئا بالخطايا.. غرفة صغيرة بقدر جمال جدرانها الحريرية إلا أنها مدنّسة بالاعترافات الخطيرة.. خيانات، وعود كاذبة والكثير من الجرائم...

لو أن للجدران قلوب لخرّت منهارة من هول ما حملت..!

للمرّة الثّامنة في هذا الأسبوع يعود نفس الشخص ليسرد نفس القصّة.. كهل ببشرة خمرية ولحية بيضاء، صلعه صغيرة في مقدّمة ناصيته.. في كل مرّة يبالغ في وصف الحزن الذي يعتريه جراء الحدث.. هل يعقل أن يكون الإنسان بهذا السواد الكافي لارتكاب كل هذه الخطايا والشعور بالذنب في كل مرة؟

آه.. نسيت إخباركم بأنه تم تعيني قسّيسا هه، وأمرت بتقمّص دور "القسيس ريكاردو" لأسبوع واحد أجمع فيه أكبر قدر من الاعترافات والأقوال وأستمع فيه لخطايا الناس.. لا أدري ما هو الهدف من هذا الأمر السخيف ولكنه يبدو سهلا للغاية.. ولكن التخطيط له ليس بهذه السهولة، فقد تم حبك الأمور بعناية تامة.. مرت الأيام متشابهة؛ عرفت خلالها الوجه الآخر للبشر..

-أحيانا لن يجدي الاعتراف بالذنب نفعا للخلاص من تلك الصورة السوداء التي ستحتويهم من منظورك الخاص- كنت أشعر بالقرف من هذا القدر السّافل من البشر الذي يرتكب الخطايا أكثر من ذرّات الهيدروجين المحيطة به والتي يستنشقها..!

اليوم الأخير في هذه المهمّة.. الجيد في الأمر أنني سأشعر بالقليل من الرّاحة بعيدا عن هذا المستنقع الكريه، نزعت أجهزة الكاميرا المخبّأة في زوايا هذه الغرفة الصغيرة على غير عادة الكنيسة وقمت ببعض التحريف لهذا البروتوكول المنصوص علي.. أرسلت أشرطة الفيديو عبر رسول المبنى الذي أتاني في الموعد المحدد بالضبط.. وأخذت أتجول في الأرشيف الذي كتبته لنفسي طيلة أسبوع من الاعترافات الباردة والخطيرة للناس.. لم أعلم ما الغرض من الأمر لكنّه كان ممتعا لقتل الملل..

جهزت نفسي لنزهة خفيفة في شوارع المدينة، أو إلى الشاطئ تحديدا لآخذ قسطا من الرّاحة قبل أن أعود للبيت الذي استأجرته مؤخرا.. ولانتظار المهمة القادمة في أية لحظة.. نصف ساعة كانت كافية لأن أتمرغ في رمال الشاطئ الذّهبية التي كانت ندية ومبللة قليلا، كان ذلك مع رحلة بين دفتي كتاب أشريته في الطّريق؛ أحد مؤلفات دوستويفسكي الخالدة، مرت سويعات عديدة لست أحصيها وأنا تائه بين الحروف وفجأة تتخلل أذني رنة أنثوية مرتعشة وكأنها تطلق معزوفة السلام.. ألقت تحية عابر سبيل ومرت مرور الكرام..

رفعت رأسي لرد التحية ولكن لساني قد شُلّ في تلك اللَحظة.. هل يعقل أن يصل الفقر بالناس للمشي بهذه الصّفة الشّبه عارية لولا قطعة من القماش مرميّة فوق الجسد إلى أخمص القدمين؟ لو لم ألحظ ذاك اللّحاف لشككت بأنها مجنونة وتسبح في عزّ الشتاء.. ولكن شعرها الأشعث وتلك الخدوش بمؤخرة أسفل قدميها ومشيها الأعرج قليلا قد أثارا عاطفتي ممّا استوجب الذهاب لها في الحال.. لا أدري بماذا أستطيع مساعدتها ولكنّ الجلوس ومشاهدتها من بعيد دون حراك كان قاسيا على مشاعري.. لربّما حرف جميل قد يفي بالغرض لرسم ابتسامة تجعلني أشعر بالرضا لقليل من الوقت، سارعت بخطواتي إلى الأمام نحوها..

-آنسة.. يا آنسة!!

لم يكن هناك جواب أو أيّ ردّ منها، والغريب أنها انكمشت بين جنبات لحافها وكأنها خائفة من شيء ما.. وضعت يدي على كتفها محاولا لفت انتباهها وفجأة توقّفت، وما إن صرت أمامها حتى استدارت إلى الجانب قليلا رافعة كتفها

بضع إنشات إلى الأعلى محاولة إغلاق أي جزء ظاهر من وجهها ممثّلة دور الطّفلة الصّغيرة حينما يعاتبها والدها أو شخص كبير وكأنها تنتظر لكمة ما.. انفطر قلبي لهذا المشهد الباعث في النّفس الألم -ذكّرني بشيء ما أجهله- قمت بفرك رأسها قليلا موحيا لها بالطمأنينة والسّلام، هنا استقامت قليلا وعلامات الحيرة بادية عليها ولمعة الخوف بعينيها الخضراوتين.. أبعدت خصلات الشعر المنسدلة فوق خديها ليظهر خلفها بريق وجه ملائكي من نوع آخر.. سرحت في التّيه متأمّلا هذه التّحفة الفنيّة المسكينة بكلّ عاطفة محاولا خلق أدنى معروف يمكن أن أسديه لها..

كانت لها ملامح تشير بأنها في مهد عقدها الثّاني وجغرافية جسدها متناسقة وكأنها حورية بابلية تطلق لعنات قديمة من سحرها الأسود الفاتن.. لن يختلف اثنان في كونها مسكينة أو مشردّة كمعنى أدق وأنها فاتنة بشكل متعب..

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة وبضع دقائق مساءً.. حاولت محادثتها مبتدئا بـ:

-مرحبا..

لم يكن هناك ردّ أيضا، كان الجوّ بيننا خاليا إلّا من صوت تضارب الأمواج ونسائم ريح خفيفة في الجوار..

-ولكن ممّ أنت خائفة؟! هل يمكنني المساعدة؟

تلعثمت قليلا ثم تكلّمت بصوت متقطّع:

مر.. مرحبا، أنا.. أنا لست خائفة.. أنا بخير، شكرا..

ثم أردفت سريعا بنبرة خائفة جدّا وارتمت في حضني وكأنّها المرّة الأولى التي يعاملها شخص بلطف هكذا، مخبّئة رأسها في كتفي مخلفة آثار دموع كثيرة هناك؛ بشكل غريب ومريح استرخت بين ذراعيّ وكأنها تعرفني مذ زمن بعيد..

أنا أشعر بالذّعر.. سيضربونني مثل كل مرة أتصادف معهم.. هم يلاحقونني، أرجوك ساعدني، لا تأخذني لهم أرجوك..

تمعّنت في الجوار قليلا باحثا بعينيّ عمّن يلاحقها ثمّ قاطعتها فجأة:

-ولكن من؟ المكان فارغ ولا أحد سوانا هنا..!

رمت هي الأخرى نظرات ثاقبة في الأفق تحمل معاني كثيرة، بشكل يائس..

نوعا ما ارتاحت وثبتت جثّتها حينما لم تجد الخطر الذي أرعبها وطاردها...

هدّأت من روعها قليلا محاولا خلق جو من المرح مشيرا لها لآخر لحظات الغروب.. استكانت حركتنا لفترة ثم رمت فوقي تلك القطع القماشية تريد أن تقاسمها معي تحت زخات المطر التي بدأت تتهاطل فجأة.. أمسكتها من كتفيها وأدرتها نحوي قليلا متسائلا

-ولكن... (صمت قليل) أين تقيمين؟

فهمت من تلك التمتمة أنه لا مأوى لها.. فخرجت الحروف من بين شفتيّ بسرعة وكأنه الحلّ الأمثل لها:

-هل تذهبين معي؟ إلى البيت.. أنا لا أسكن بعيدا عن هنا، دقائق بالسيارة كافية للوصول.. لنأكل قليلا ونغير ملابسنا المبلّلة!

تنهدت قليلا محاولة استيعاب الأمر.. يبدو أنّ لها كبرياء عظيما منعها من نطق كلمة القبول مع أنها في باطنها لا أشك أنّها قالت الإجابة التي أنتظرها من أيّ مسكين أو مشرد أطرح عليه هذا العرض الثّمين.. أمسكت بيدها على غفلة وصرت أهرول مسرعا إلى الحظيرة حيث مكان السيارة، وما زاد ارتياحي أكثر عند تمكني من مساعدتها هو خلقي لابتسامة من شفتيها بهذه الخطوات المتسارعة -مابين الهرولة والجري- نحو السيارة المركونة في الجوار.. صعدنا بسرعة وحدّقنا ببعضنا البعض وتبادلنا ضحكة خفيفة على هذا الجو المرح الذي خلقناه.. أدرت المحرّك وشغّلت المكيف وانطلقنا إلى منزلي المتواضع الذي يبعد حوالي عشرة كيلومترات من هنا..

***

دانا.. دانا أرمسترونغ.. 21 سنة.. ابنة غير شرعية باعها والداها في السنين الأولى من عمرها لعائلة غنيّة لم تنجب.. وبعد وفاة الأم في هذه العائلة جعلها والدها المزيف "جورج كلاوديو" عبدة في الملاهي للرّقص فوق طاولات

الرهان في سنين مراهقتها الأولى.. هربت من هذا المجمع عندما حاولوا ترقيتها لمهمة أشد قذارة وهي دمية جنسية لإشباع غرائز الرجال وهذا ما لم تقبله كرامتها حيث لاحظت بأنّ حياتها ستنتهي على هذا الحال إن لم تضع حدّا للأمر.. خصوصا وأنّه لم يرها منذ أن ماتت زوجته ورماها وهي صغيرة كخادمة في بيت بعيد يحوي مجموعة من الصعاليك.. هذا والكثير من الأمور عرفتها ليلة أمس وأنا متّجه معها من الشاطئ إلى المنزل..

صبيحة أودت بمفاصلي إلى التعب بعد نهار شاق ونوم لم يكن مريحا بالشكل الكافي، خاصة وأنا طريح الأريكة بعدما تبرّعت بغرفتي لـ "دانا".. فجأة تدخل عليّ الفتاة محمّلة بصينية الشاي والفطائر الشهية، لم تكن ترتدي سوى ملابس داخلية مثيرة والتي لم تجد بديلا عنها في منزلي لترتديه أو تزيده فوقها بحكم أنّي رجل أعيش وحدي ولا حاجة لي بأغراض النساء هذه.. تبادلنا تلك التحية الروتينية ككلّ صباح بين الجميع ومن ثمّ أخبرتني في استحياء:

-أعلم بأنّك مسلم، أرجو ألاّ أكون أخدشك بملابسي.. هل أجلس؟

في داخلي لا أنكر أن نفسي انقبضت من هذا المشهد.. فمن الصعب أن تقابلك امرأة فاتنة وبهذه الهيئة في أصبحوتك الأولى بعد خروجك من عذاب السّجن وفي منزلك الخاص ولوحدكما لا ثالثا لكما غير النّفس الأمّارة أو الغريزة.. ثم قلت مرتبكا:

-لا.. أنا أقدّر ظروفك، لا عليكِ تفضلي.. سنذهب فيما بعد لنقتني لك بعض الملابس الدافئة...

تحدثنا قليلا عنها وعن مكوثها هنا قدر ما شاءت إن هي أرادت والكثير من الأمور الأخرى مثل حياتي.. حيث أخبرتها عن مدى اشتياقي لعائلتي وأصدقائي الذين لا أتذكّر منهم إلا القليل من الصّور المشتّتة وبعض الملامح وعن قصّة السجن والمهمّات التي رُميت على عاتقي وهي السبيل الوحيد لعودتي إن أكملتها كلها.. صدمتْ من قصة السجن وزاد فضولها لمعرفة الكثير فقصصتها عليها كلّها:

هو سجن كبير.. يستطيع الكثير الهروب منه لأسباب خاصّة قد تكون استثمارية أو عائدات ماديّة للسّجن وربّما إجازة لسجين ما.. أو ربما لمهمة معينة؛ مثلي.

المهمة الأولى: وهي تزويد تلك الغرفة الصغيرة في الكنيسة بكاميرا مراقبة وتسجيل صوتي لمدة أسبوع قمت فيه بدور القسيس وكانت الخطة محبوكة مسبقا وهذا ما سهّلها عليّ فأديتها على أكمل وجه.. بالنسبة للمهمة الثانية فقد تصلني في أيّة لحظة عبر رسول من السجن أو رسالة إلكترونية أو بأية إشارة أخرى..

دعينا من كل هذا.. هل أنت مسيحية؟

كانت إجابتها النفي.. وبدت محتارة بعض الشيء

ماذا إذا؟

سكتت قليلا ثم قالت:

-هل يجب على المرء أن يكون على دين؟

أكيد.. ليحدّد مصيره بالعقيدة التي يتّبعها.. هل أنت لا إنتمائية أو لا دينية؟ أظنّكِ من الصنف الآخر؛ الذين يطلق عليهم "اللاّ أدريين"؛ أي لا يفقهون في العقائد حرفا أو شيء من هذا القبيل.. لا أعلم بالضبط

-لا، أنا مؤمنة بالإنسانية والعلم ربما...

الأمر مختلف هنا.. فطرتك إلى ماذا تنادي؟

لم أرصد أيّ إجابة منها وهنا علمت بأني ضايقتها بتطرّقي لهذا الموضوع الحسّاس.. ولكي أزيل الارتباك عليها أخبرتها أنه لا حرج في الأمر.. سنتعايش في كل الأحوال.. حملت رجليَّ وسرت نحو غرفتي.. دخلت متوجها نحو الخزانة لألتقط منها بعض الملابس الملائمة لجوّ كهذا.. وأضفت عليها لباسا صوفيا آخرا لـ "دانا".. الجوّ بارد قليلا لعلّ هذا يفي بالغرض، عدت إليها من جديد ووضعت القميص والأغراض الأخرى بجانبها لتقوم بقياسهم.. لمعت عيناها

ونهضت فجأة متقدمة نحوي وعانقتني حتى ارتصت كل تفاصيل جسدها بجسدي وتمازجت.. -عندما تتغلب المشاعر عن الغريزة الجنسية فهذا هو الحب الحقيقي-؛ برغم هذا الجسد الفاتن شبه العاري أمامي، بل الملتصق بي.. وما إن رميت بيديّ حولها لأحتويها لعلها تشعر بالسكينة والطمأنينة لامس كفي بشرة ظهرها مباشرة؛ ولكن بين لحظة وأخرى اِرتقينا بروحَينا من هذا العالم السّافل إلى عالم آخر نقيّ وطاهر.. عالم لم يؤثّر فيه الاختلاف العقائدي ولا الطبقيّة الاجتماعية ولا أيّ فروق أخرى؛ وكانت الإنسانية سيدة الجميع بعيدا عن الغرائز الحيوانية..

هل يوجد أرقى وأسمى من هذا؟ لا أظن...

فجأة يطرق الباب.. من تراه سيأتي! لم أعهد أن يكون لديّ ضيوف..!

داخل الخزانة هناك باب خشبي يمرّر إلى غرفة صغيرة اختبئي فيها، أسرعي.. قد لا تكون الأمور على ما يرام.. وقفت منتصبا مترددا بين فتح الباب أو الانتظار قليلا.. ولكن تسارع وتيرة الطّرقات بشكل مخيف دفعني إلى حالة

التأهب، أسرعت إلى غرفتي حملت عصا البيسبول وسكينا حادة منتظرا أي هجوم.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان وما لم أتجهزّ له! دخلوا من ساحة المنزل الخلفية.. هذا هو التفسير الوحيد لهذه الضربة التي أتتني من الدّبر على مؤخرة رأسي.. -في بعض الأحيان الطريدة هي من تفترس الصائد..- مثّلت دور الإغماء قليلا حتى جعلته يتريّث لثوانٍ ويؤمنني ويرتاح لكوني غائب عن الوعي، ودرت بخفّة موجّها له ضربة قاسية أسفل فكّه.. لم يلبث إلى أن أتته الأخرى في حلقه مباشرة أردته طريحا مغشيًّا عليه..

هل هناك المزيد أم أنّ هذا الصعلوك أتى بمفرده! هدوء رهيب وأنا واقف أمام الباب بجانبي جثة وأحمل عصا ممشوقة مناسبة للقتل وسكّين باليد الأخرى.. -هناك قاعدتين عليك حفظها: الأولى أن تهجم حتى وإن كنت أمام مئة شخص..- وفجأة يُهدّ الباب وتدخل مجموعة أخرى.. على الأغلب هم خمسة أشخاص، صعدت للطابق الثاني بكل سرعتي وبيني وبين سكاكينهم الحادة سنتيمترات فقط.. بالمناسبة، القاعدة الأهمّ في هذه الحياة هي أن تترك القواعد جانبا.. استدرجتهم لمنتصف الدرج المؤدي للأعلى وقمت بحركة مباغتة حيث

أمسكت السياج بكفي وحولت جسدي في الجو ناحيتهم مما أدى إلى سقوط سكين الأول وتعثره قليلاً؛ ليسقط للأسفل ويعيق حركة الباقي وأعود أنا للطابق الأول من جديد عبر القفز مع بقائي متمسكا بالسياج إلى أن أؤمن زاوية مناسبة للوثب.. الأمر الجيد هو أني علمت بأنهم لا يملكون أي مسدس أو سلاح ناري آخر.. هرعت إلى المطبخ وصفقت الباب خلفي وبسرعة أدرت مقبضه لينغلق من الداخل، أكملت الطريق نحو الشرفة وصعدت فوق إطار الباب.. لم تمر سوى دقائق قليلة حتى دخلوا كالوحوش الجارحة.. نصفهم اختار الطريق المؤدي إلى الرواق الأخر عبر المطبخ ونصفهم الآخر اختار الجحيم؛ الشرفة.. ما إن عبروا ووجدوها خالية -حيث كنت معلقا فوق بابها- أخذوا يرمون بأعناقهم للأسفل علهم يروني واقعا هناك منتحرا من هذه العليّة أو فارًّا من بعيد.. لكن يظهر لي بأنهم هم من سينزلون للأسفل الآن.. تمسكت بإطار الباب وانزلقت تجاههم بقاعدة رجلي بكلّ قسوة ليختل توازنهم؛ سقط الأوّل بسرعة والثاني بقيَ متشبثا..

-ماذا تريدون..؟

هيا أخبرني حتى أتركك في حال سبيلك وإلا ستتذوّق طعم هذا المعدن الآن.. هيّا...

دانا... نبحث عن دانا.. لا شأن لك أنت.. إنّا مبعوثون لأجلها...

زاد غيضي وأخذت بأقوى ما أنجبت عضلة ساقي وركلته ككرة قدم، انتهت به يعوي كذئب مسعور في طريقه إلى الأسفل.. استدرت بسرعة متوجّها للخارج لأتفقدها حتى وجدتني أمام شخصين أحدهما نحيل وطويل والآخر على عكسه تماما؛ جسد مفتول كخنزير متوحش ومتوسط القامة.. أغلقا باب الرواق والباب المؤدي إلى الباحة ليكونا بذلك حشراني في المطبخ.. أمامي مطبخ مغلق وخلفي شرفة صغيرة.. الموت في كل مكان، لنجعل الأمر ممتعا إذًا.. أحكمت قبضتي على السكّين والعصا وتقدّمت خطوة للأمام وأغلقت باب الشّرفة هو الآخر.. صرنا ندور في حلقة مغلقة بين ثلاث أشخاص في مطبخ مغلق من كل الجهات وكلّما تقدم أحدهما سنتيمتر من محيطي لوحت بقوة حتى يعود مكانه وأكتسب وقتا إضافيا.. لا أظن أن الأمر سينتهي سريعا، كان

الأجدر بنا أن نعدّ وليمة من الغداء ونتفق فيها على ألّ◌ّ◌َا نلتقي أبدا بسهولة.. وفي غفلة من خيالي المشتّت هذا ينقضّا عليّ مرّة واحدة، أخذ الأول صعقة من العصا لقسوتها والآخر استطاع خدشي بسكّينه الحادة في ساعدي؛ في مكان جهاز الاستشعار بالتحديد.. الجهاز الذي تمّ تركيبه بين فصّي الكسر القديم في العظم ليضمنوا سيطرتهم عليّ أثناء أداء المهمات الموجّهة لي.. هل تدري ما هو الغباء؟ أن تبدأ بالمفاوضة مع من يسطو على حرمتك الخاصة.. الموت أو الموت وقليل من الحظّ للحياة.. استغلّيت الدوار الذي أصاب النحيل ورميت السكّين من جانبه بقدمي بعيدا عنه ومن ثم اتجهت نحوها بخفة وحملتها.. وصرت ألوّح بها على الشخص الآخر وأتقدم ببطء من النّحيل المرميّ أمامي.. كنت أريده حيّا لذا لم أشأ قتله؛ يكفي وخزة حادّة في ساقه تشله عن الحراك.. لديك سكين وعصا، أتدري ما هي الخطّة؟ قمت برمي السكين الأول بكل دقة عليه حتى تصدّى له بيده ليصاب بخدش صغير هو الآخر.. في هذه اللحظة أتته ضربة قاسية من عزيزتي عصا البيسبول على يده والتي أسقط منها سكّينه الحادّة، وجّهت له وخزة دامية في بطنه وأخرى في

رجله لأضمن الهدوء التام وحتّى لا يموت؛ فأنا أحتاجهم قليلا هنا.. هل هناك المزيد؟ هدوء تام في الجوار.. مشيت ببطء متفقدا كلّ زاوية من المنزل، لم يكن هناك أحد.. ذهبت للخزانة أين يوجد الباب السري الذي يمرر للغرفة الصغيرة حيث تختبئ "دانا".. وجدتها جامدة لا تقدر على الحراك من شدّة الخوف.. مسحت على شفتيها ظنا مني أن هنالك غبارا مترسّبا بها ولكن مع رصّي عليهما عادتا إلى اللون الوردي أو الأحمر الفاتح.. هل هذا كلّه بسبب الخوف هه؟.. أحكمت إغلاق كل النوافذ والأبواب والشرفة ولم أترك أيّة فرصة لأي دخيل بالولوج إلى هنا.. عدت أدراجي إلى المطبخ حيث هنالك ثلاثة أشخاص محجوزين؛ ثالثهم هو أول صعلوك دخل إلى المنزل وأغميَ عليه من أول ضربة.. لم أقصِّر في تقديم الإسعافات الأولية لهم والطعام والشراب.. أمستعدون للإجابة أم للموت؟ لماذا أتيتم إلى هنا..؟ من أرسلكم..؟ ما شأنكم بـ "دانا"؟

رموا النظرات فيما بينهم ثم تكلّم النحيل فيهم:

أرجوك لا تؤذنا، سأخبرك بكل شيء...

حملق في زميله بحيرة من وجوههم الغاضبة ثم أكمل:

جورج كلاوديو.. صاحب أشهر كازينوهات الرّهان والملاهي وزعيم المافيا في الجوار.. ليست بالعملية المحبوكة أو التي تكلف مشقة، أو كما كان يظن.. ولسنا تابعين له، كل ما في الأمر عرض علينا مبلغا من المال مقابل أن نسلم له "دانا".. "دانا الذكية" كما أخبروه عنها والتي بإمكانها القيام بأخطر المهمات دون قطرة دم واحدة؛ من إغراء وأنوثة وكيد عظيم.. صحيح أنه لم يرها ولكنه قسا عليها واستعبدها بعد وفاة زوجته ونسيَ الأبوة المزيفة منه لابنة أخيه في سنينها الأولى.. وكذلك أراد الزواج منها مع أنه لم يرها لحظة؛ فالمنزل الذي تعمل فيه كان بعيدا وليس إلا لرجال المافيا التابعين له.. هاجمناها ليلة أمس في الشاطئ ولكن أردنا معرفة بعض الأسرار عندما رأيناك معها وهذا ما دعانا للاختباء وتتبّعكما إلى هنا.. والباقي أنت تعلمه...

نظرت إلى "دانا" التي كانت واقفة بجانبي ووجدتها سارحة في خيالها، أمسكتها من يدها وأخرجتها معي.. أغلقت باب المطبخ من جديد وصعدنا إلى الغرفة.. كنت محتفظا بوابل من الأسئلة ولكنّها قاطعتني هي بأسئلتها الغريبة:

-هل تتذكّر قصة اعترافات البابا في كنيسة أخرى؟ تلك التي أخبرتني بها.. لقد قرأت ما قاله في الأرشيف الأسبوعي الذي كتبته؛ لحسن حظنا أنك فعلت ذلك.. أنا أعرف من يرغمه على الخطيئة.. "جورج كلاوديو".. نعم هو.. رأيتهما معا أكثر من مرة ومتأكدة أنه هو من يرغمه لبعض الخرجات وتحريف بعضا من العقيدة.. إذًا لدينا صلة بيننا أنا وأنت.. هل أخبرك بسر آخر؟ ذلك الشّخص الذي أعطاك المهمات.. البشوش المتغطرس أو الكهل الوسيم كما تلقبه أنت "الرجل السعيد".. أقصد "أليغري".. تصادفت مع ابنته مرة أو اثنتين في أحد ملاهي باناما الفاخرة عندما كنت مع "جورج".. إذًا "أليغري وجورج" يرغمان البابا على تحريف النصوص العقائدية وفقا لما يريدون..!

أنت عدوك ذاك الرجل مجهول الهوية لأنه يسير حياتك ويمتلك إدارة السجن.. وأنا عدوي "جورج كلاوديو".. والبابا لا يمكن أن يتغير من منصبه على كل حال، إذًا هو خطر كبير على الجميع..! ماذا لو أخبرتك أن الحل لجميع هذه المشاكل عندي هه؟ أراك عقدت حاجبيك..! ألا تظنّ بأنّي قادرة على التّفكير في مخرج لنا؟ الفقر لا علاقة له بالقدرات العقلية..

لم يتبقّ سوى أيام قليلة على ليلة رأس السنة.. أعدك بأن كل هذا سينتهي مع حلول أول ثانية من العام القادم.. الآن دعني أغير لك الضمادة من على يدك فهي تنزف كثيرا.. آه، لحظة!! هل مزال جهاز التتبع في ساعدك؟

صه! لا تتكلم وثق بي.. دعني أنتزعه عنك، لن يجدوك إلا قبل عشرة أيام أو أكثر.. سأضمن لك الخلاص في ثلاثة أيام.. ستشعر الآن بقليل من الألم ولكن بعده راحة للأبد.. فقط ثق بي..

الفصل الثّالث:

الخطّة المضادّة

تقول نظرية الفوضى "رفة جناح فراشة في مراكش قد تُسَبِّب إعصارًا في أمريكا بعد عدّة سنين" قرون كثيرة مضت ولا تزال أخواتها تمضي وهذه الأرض العجوز شاهدة على أحداث مثيرة وقعت وما زالت تقع، أحداث لئيمة وأخرى حميدة تسببت فيها مخلوقات الأرض بإنسها وجنّها وكلّ دوابّها، وليس للصدفة من نصيب هنا! بل تجري الأمور بكثير من التخطيط المحكم ..ذئاب بشرية تعانق رؤوسهم سماء الخبث، يحرّكون العالم كأحجار الشطرنج ويسيّرونه بدهاء فاسدٍ وصل إلى مراحل متقدمة من التعفن الأخلاقي..

عزيزي! كلّي فخر لوصولك إلى هذه الصفحة، وإنه للزام عليّ الآن أن أوصيك بتوخّي الحذر! أفهمت؟ احترس ولا تستهن بأحد ولا تستصغرنّ شيئا أبدا! حتّى من تلك البعوضة التي تحطّ على ذراعك، ربّما هي كاميرا تجسّس متقدّمة أو آلة دقيقة بالغة التطور لسرقة عيّنة من دمك وتحليله لمآرب تجهلها، أو ربّما كانت حقنة تقذف بداخل أوعيتك فيروسا يفْتِك بحياتك.. تذكر جيدا! لا

تغفل عن تفاصيل حياتك، حتى حبر هذا الكتاب لربما كان سامّا ليزرع في جلدك بثورا وقَيْحا عسيرا العلاج.

كريم بن أحمد

في صبيحة هي الأخرى من أواخر كانون الأول في "الولايات الأمريكية المتحدة" انسدلت أشعة الشمس على مدينة الأضواء، تحديدا في "لوس انجلوس" على وقع أنغام النورس المهاجر وكأنه يعقد اجتماعا هاما فوق أحد موانئها الكبيرة مستعدا لرحلة شاقة لقضاء شتاء دافئ في أحد المناطق الجنوبية.. ما لبثت زرقة السماء أن تكون وشاحا فوق المدينة إلاّ وقد قاطعتها الكثير من السحب المحمّلة بكميات هائلة من الثلوج الموسمية.. إن قرصات البرد الموجعة لن تحول دون ارتفاع هرمون السعادة في مواكب الثلوج التي تحيك للأرض قطعة قماشية بيضاء وكأنها عروس زاهية في ليلة زواجها جعلت كل من حولها يهللون في طاقة مفرطة على حسب دراساتي النّفسية على الصعيد الشخصي.. الأطفال كلهم في هذه الأثناء يتصرفون بلطف ليحظوا بهدية من سانتا.. وكذلك بعض المراهقين ينتظرون هطول تلك الثلوج بفارغ الصبر ليكتمل مثال رأس السنة على أكمل وجه كما عاهدتهم هوليود في أفلامها الكثيرة.. الجميع في حالة تأهّب لاستقبال السنة الجديدة بالزينة والهدايا وتلك السهرات العائلية الجميلة.. وبدوره كان "أليغري" الرّجل الكهل الذي ينحدر

من أصول إسلامية يصطف في الطابور الطويل لبائع أشجار الميلاد.. لم تسلم المدينة المشهورة بنظامها الاِجتماعي الرائع من الزحام الذي خلفته تلك الأجساد المتراصة حول محلات الزينة والمشروبات وكل ما قد تتطلبه سهرة بمكانة ليلة رأس السنة المقدسة لدى جل الشعوب في هذا البلد الكبير.

لم يتبقّ في طابور الانتظار سوى ثلاثة أشخاص خلفهم "أليغري" مباشرة.. لم يشعر بنزعة من الملل طيلة فترة انتظاره التي دامت أكثر من (45دقيقة) كان السرّ وراء تروّي هذا الذئب الخبيث لينتظر كلّ هذا الوقت هو تلك العاملة التي كانت تدير مكتب الاستقبال والتوجيه.. إنها الفاتنة المتأنقة بزي العمل الأبيض والأسود؛ والتي قامت بلفت انتباهه وترك انطباع غريب يشوب ملامح وجهه الشحوب عبر إشارة منها خلسة له ليتريث قليلا دون كلل في هذا الطابور الطويل؛ بغمزة ساحرة هي الأخرى قد أثارت غرائزه التي لطالما لاقى صعوبة في التحكّم بها وكبحها، حيث تورّط في الكثير من المشاكل بسبب هذه الميول الجنسية الرذيلة.. لم تمضِ سوى أربعة عشر دقيقة أخرى حتى أصبح بينه وبين محل المزرعة الصناعية المليئة بأشجار الميلاد القليل، ثلاث

خطوات فقط كانت كافية لحمل هذا النحيل الذي أمامه.. حلّ السكون والهدوء إلى حد ما في هذا الوقت المتأخّر من الليل خاصة عندما خفضت تلك الضوضاء التي كان خلفها الجمع الغفير في هذا الطابور الطّويل، هو الآن لا يحمل إلّا شخصين اثنين؛ كان ثانيهما "أليغري" وقبله رجل آخر، وتلك البائعة الجميلة التي تردد كلمات من حنجرتها الرقيقة بنبرة تأسف:

-آه..! آسفة جدا سيدي ولكن قد انتهت كل الأشجار من المستودع.. نأمل أن تعود في وقت مبكّر غدا...

قاطع صوتها تمتمات لعنة واستدار المشتريان في فورة من الغضب الكبير.. سارا في طريقين متعاكسين، لم يكد "أليغري" يتقدم خطوتين إلى الأمام حتى استوقفته أنامل تشبثت بكتفه الأيمن.. أدار رأسه بسرعة ظنًّا منه أنه سيرى جارته العجوز السكيرة كعادتها في هذه الأرجاء.. ولكن خاب كل هذا وتدحرجت ظنونه إلى إطار الخيبة.. إنها "إيميلي" البائعة السّاحرة.. هذا ما

قرأه "أليغري" في ورقة التعريف المعلقة على ياقة قميص العاملة الفاتنة في ركن الاستقبال والتوجيه قبل لحظات..

-سيد أليغري أليس كذلك؟

تلعثم قليلا ثم أردف:

نعم.. أليغ... أليغري.. لكن لماذا؟

-إنّك محظوظ جدّا.. كنت قد لاحظت وصولك إلى محلنا المتواضع وكنت أتتبّعك بنظراتي في كل تحركاتك خوفا من أن تخرج عن الطّابور مترجّلا من حيث أتيت.

صمتت قليلا ثم أكملت بعدما أطلقت تنهيدة عميقة:

-كان قد جاء صديق قديم لك على حد قوله اسمه راين.. ريتشارد.. راندي!! آه مع الأسف قد نسيت حقا.. المهم أنه أمر بأن أحتفظ لك بأحسن شجرة على حسابه الشّخصي، تفضل معي..

تقدمت العاملة "إيميلي" عن "أليغري" الذي لم يفهم ما يجري وكانت علامات الحيرة بادية على ملامح وجهه البيضاوي الصغير، تقدّمت أمامه بخطوات مشيرة له بأن يتبعها وهي تعيره نظرات عاطفية وكأنها لمراهقة تقع في حبّها الأول.. هذا ما قد تلاحظه في الوهلة الأولى عندما ترى تصرفاتها الغريبة واحتكاكها به كثيرا في مواضيع ليس لها أي علاقة بها وتسأل عن كل شيء؛ مثل عمله، اهتماماته، وحتى مسكنه وغيرها الكثير عبر ابتسامة تثير العاطفة.. وجد "أليغري" ضالته ولم يكن يتوقّف عن الإجابة فقط، بل ويزيد عن ذلك سرد قصص أخرى عن حياته الشخصية كبطولاته العظيمة في السّجن الذي يديره.. شجرة الميلاد! نسي أمرها تماما.. طال الحديث إلى ما يقارب الحادية عشر ليلا.. هنا قاطعت إيميلي عمق الحديث بأن وقت الرّحيل قد حان، وهل تظن بأن "أليغري" سينسى طلب بطاقتها للاتصال بها في وقت لاحق؟ لا.. لم ينسَ ولو للحظة أن يشدّد في وصف جمال وحسن "إيميلي" ولم يغب عليه طلب استبدال بطاقتيهما ليبقيا على تواصل واختلاق فرصة لقاء آخر، وربّما فرص أخريات لم لا..؟ نهضا يمشيان بخطوات ثقيلة في الممرّ المؤدّي إلى

المخرج وهنا افترقا عند البوابة بين "أليغري" الذي دوّن عنوانه ليتم توصيل شجرة الميلاد و"الحسناء" التي كانت قد غيرت لباس العمل ومشت إلى الطّرف الآخر من الشّارع...

***

للمطالعة نكهة خاصّة عندما تمتزج رائحة السّجائر بأوراق الكتاب بجانب قنينة من الويسكي قليل الكحول.. بنبرة الثّمالة قالها "كلاوديو" وهو يرفع ناصيته نحو شلّة من الشّباب كانوا قد وصلوا لتوِّهم نحو هذه الطّاولة المستديرة للعبة "البوكر".. وهي من أكثر ألعاب الورق شعبية في العالم.. يبدو أن أحدا ما سيخسر ماله الليلة! جلس الجميع في الكراسي الخشبية على محيط الطاولة قبل دوي من طقطقة التصفيق بين تلك الأيادي الغليظة المشبّعة بالقسوة في تحية على طريقة رجال الرّهان.. وبعد جلوس تلك الكتل الجسدية في أماكنها أشار "كلاوديو" للنادل طالبا إيّاه لملء الكؤوس بالقليل من الشراب.. مرّت سبع دقائق.. -لا بل أكثر- جعلت "كلاوديو" يشعر بشحنة من الغضب.. لم يدم

صبره دقيقة أخرى.. بينما كان الجميع يجهز الطّاولة للعب وتوزيع الأوراق.. اِلتفت "كلاوديو" يمينا وشمالا بين تلك الطّاولات الكثيرة في الحانة ولم يجد النّادل في الأرجاء.. لم يلبث أن قام من مكانه في هيجان كثور إسباني حتى خرج النادل النحيل من غرفة الخدم بجانب ثلاجة المشروبات التي بزاوية القاعة.. مؤكد لم يكن هناك لوحده؛ كان مع إحداهنّ يمرح.. لمح "كلاوديو" قلبا بنفسجيّا صغيرا بالقرب من الشفة السفلى لدميم الوجه المتعجرف ذاك.. قبلة صغيرة جعلته يأخذ صفعة ألهبت خدَه من جرّاء الغضب.. رصّ النادل الذليل ضرسيه على بعضهما ممثلا مشهدا دالّا على القوّة واللَامبالاة بمساحة وجهه الصّغيرة ثم تنهّد وكأنه قال الكثير عبر دسّ الهواء في رئتيه بكل شغف ثم صب الشراب لهؤلاء الزبائن وأكمل عمله كأن شيئا لم يكن.. عاد "كلاوديو" لكرسيه المسكين الوحيد الذي يتحمّله بكل هذه العضلات الزنجية الكبيرة وهو يتمتم بكلّ ما حفظ لسانه من الشّتائم واللّعنات.. رفع كأس الشّراب وأخذ رشفات قليلة منه، حرّك حدقتا عينيه في أماكن مختلفة ببطء في أرجاء الطّاولة ثم ربّت بلسانه على سقف فمه عدّة مرّات في محاولة منه لتمييز هذا المذاق الدّخيل

الغريب في الشّراب! ولكن زالت تلك الغصّة والمرارة عندما استأنف اللّعب واندمج معه ونسيَها تماما.. مرّت سويعات على هذا الحال وانتهت اللعبة وافترق الجميع وتوجهوا إلى ديارهم بين خاسر متذمّر ورابح يتساقط لعابه من شدّة الفرح.. وفجأة ينبعث صوت صياح رهيب!! كان من غرفة "كلاوديو".. ما سبب صراخه؟ خرج مسرعا ساخطا على ذاكرته الغبية التي خانته في ليلة كهاذه.. بعد أن اختفى ظلّه من الرواق، عاد برأسه قليلا مناديا "دانيل" الأخ الأصغر له؛ مشيرا له بأن لا يقلق فهو ذاهب لإحضار البعض من قنان الشامبانيا قبل نفادها.. وهذا ما كان مبرمجا له بالأصل لو لم ينقضّ النّسيان عليه في طبق من تعب..

أدار محرّك السيّارة بحدّة وانطلق مسرعا مخلّفا وراءه آثار العجلات التي تموّجت بشكل الإطار الجديد منتهية بسحابة سوداء تبعت السيّارة حتّى اختفت تماما في الجو... حدث كلّ هذا في لمح من البصر.. خرج من ساحة المنزل نحو الشّارع الضيق ثم ضاعف السّرعة ليغادر هذه الأحياء الشّعبية، انعطف يسارا وبعد حوالي "300متر" أنعطف إلى اليمين عند أوّل مفترق

طرق بحركة متهوّرة وكأنه متسابق في حلبة الرالي.. أكمل طريقه حتّى خرج إلى الطّريق السريع الرّابط بين قريتهم ووسط المدينة، وفي أوّل متر من الانعطاف فجأة رصّ بقاعدة رجله على دوّاسة التوقّف بعنف محدثا بذلك ضجّة تصمّ الآذان بسبب شدّة احتكاك العجلات بأرضية الطّريق.. كان ليكون هناك اصطدام قوي لو لم تتوقف السيّارة عند علامة الـ Peugeot في مؤخرة الـ 208 التي وجدها أمامه ولولا ضربة حظّ لقبّلتها بعلامة الـGMC الخاصّة بسيّارة كلاوديو السوداء رباعية الدّفع والتي كانت كفيلة بسحقها.. بين السيّارتين بضع انشات فقط، صار شكل البخار من محرك سيارة كلاوديو ظاهرا في التجويف الذي بين العربتين يملأ الفراغ متصاعدا بشكل جلي عبر إنارة المصابيح الأمامية وقطرات المطر المترسّبة بقليل من النّدى على مقدّمة السيارة.. والتي تبشّر بغيث كبير قادم! لم يلبث أن تراجع بالسيارة ليركنها جانبا ونزل حاملا بيده عصا قاسية لا تفارقه تحسّبا لأي طارئ والتي تلازم عادة أشخاصا مثل "كلاوديو".. تقدّم بضع خطوات نحو تلك السيّارة الصفراء ملوحا بيديه متحديا صاحبها مشيرا له بالنزول والمواجهة ليفرّغ جامّ غضبه عليه

حيث بالكاد توقف قبل أن يحدث التصادم وهو يتحرك بقدميه في محيط صغير بطريقة متوتّرة تدل على أن البركان قد بدأ بإفراز الحمم.. المؤسف في الأمر أن زجاج السيّارة لم يكن ناقلا للرؤية وهذا ما قد استثار "كلاوديو" أكثر من ذي قبل وزاده استفزازا.. مرت لحظات من الصراخ الأهبل وفجأة تحرك باب المركبة ويا ليته لم يفعل.. كان المشهد بالعرض البطيء و"كلاوديو" ينتظر أن يلمح ظل الأحمق كي يوسعه ضربا ولكن قد خابت كل آماله ولن يستطيع التنفّس والتخلّص ممّا يشدّ خناقه.. خرج من أسفل الباب حذاء أحمر بكعب عالي، ثم بدأت خصلات سوداء حريرية بالتدرّج خارج السيارة حتى انتهت بوجه يشع نورا كبدر أغسطس.. اختتم كل هذا برائعة من روائع الخلق.. كانت شابة سمراء ممشوقة مملوءة الجسد بفستان سهرة قصير وفاتن.. ارتاب "كلاوديو" واحتار في ردّ فعله ولم يواجهها بالتكيف المناسب لهكذا موقف، حيث صار يفرك ذقنه ومؤخّرة رأسه يريد إخراج القليل من الحروف وجمعها بالطّريقة الصّحيحة التي تفي بالغرض لحل هذا المأزق الكبير.. صار كالقطّ الأليف ذي ربطة العنق الأنيقة.. تلعثم وهو يتجول في جغرافيتها

الجسدية الفاتنة إلى أن قاطعته رافعة رأسها من حيائها وتوتّرها.. لمعت عيناها الخضراوتين في هذا الظلام وقالت:

-آسفة.. آسفة سيدي، تعطّلت سيّارتي فجأة ولم تصل شاحنة إسعاف الطّرقات ممّا استوجب عليّ الوقوف هنا غصبا عني.. أظن أن البنزين قد انتهى لآخره!

استعاد كلاوديو ربطة جأشه وقاطعها فجأة:

-لا.. لا مشكلة.. إنّ المرء ليقلق في مثل هذه الظّروف ولكن صدّقيني لا يوجد أيّ إشكال على الإطلاق.. هل نفاذ البنزين هو كل ما في الأمر ؟

استدارت وانحنت قليلا مشيرة إلى شاشة المؤشّرات وقالت بصوت محتشم يدل على أنها لا تعرف شيئا عن السيّارة غير سياقتها:

-هاه..! أظن ذلك ولكن لم يسبق وأن انتهى فجأة هكذا..

اغرورقت عيناها بدموع بريئة وزاد اخضرارهما.. سكتت لحظة ثمّ أردفت:

- لا أريد المبيت هنا في منتصف الطريق..

تقدم منها "كلاوديو" بضحكة صغيرة تدلّ على استغبائها وقام بمسح تلك العبرات من على بشرتها السّمراء الجميلة وطمأنها بأنّ الأمر لا يقتضي كلّ هذا القلق، كلُّ ما في الأمر قطرات من البنزين سأعيرها لك وتمضي في طريقك كأنّ شيئا لم يحدث.. ثم انحنى بجانب ثقب الخزّان دون سابق إنذار وقام بإدخال أنبوب كان قد أحضره من سيارته مع دلو مغلق به بنزين.. استنشق الهواء قليلا من داخل الأنبوب حتى وصل البنزين إلى الفتحة أعلاه ولم تكن سوى دقائق حتى انتصب واقفا يمسح الغبار من لباسه ورأسه للأسفل.. ثم خطا خطوة إلى الأمام واصطدم بأنامل ممتدة أمامه...

-فيرونيكا.. فيرونيكا ألبا.. شكرا جزيلا على صنيعك هذا، لن أنساه لك ما حييت، أنا مدينة لك حقّا..

صافحها "كلاوديو" وهو يردّ الاعتبار بكلمات استعراضية:

-لا، لا داعي لهذا، أنا لم أقم إلا بواجبي سيدتي..

ومن ثمّ قامت بإعطائه بطاقتها وأخبرته أن يهاتفها غدا بعد الظّهيرة.. تحرّكت بسيارتها من جديد وهي تلوح له بابتسامة آسرة حتّى اختفت في الأفق.

***

أحد أحسن العلاجات النفسية غير المصادق عليها هو محض سيّارة في الطّريق السّريع على أنغام موسيقى هادئة بعد منتصف اللّيل.. هكذا كان الحال بالنسبة للآنسة "ماري بارمسترونغ" وهي تشقّ طريقها نحو صديقها من قاعة الفنون في الجامعة حيث يقيم حفلة في منزله.. تصدّع قلب المسكينة وانصاع لترنّمات السلّم الموسيقي الذي هوى بها من مذياع السيّارة إلى عالم آخر في مخيّلتها توالت فيه مشاهد متقطّعة لطفل يلوّح بيديه مختفيا في الأفق تارة ومقتطفات من ابتسامته تارة أخرى وكأنها لشريط فيديو غير منتظم يسير بسرعة فارطة.. سرعان ما تناغمت مع الموسيقى التّي خلّفتها حطاما تحت أنقاض الماضي البعيد.. تلاشت صور الهلوسة ببطء لتظهر مكانها صور من

أرض الواقع.. كان الحفل يثير جلبة في آخر الحي، وصلت أخيرا إلى مقصدها في هذا الشارع الضيّق الطويل.. أين كانت هناك جموع متناثرة في حلقات رقص في الرّصيف أمام الباب وحتى منتصف الطريق المقابل.. وأزواج أخرى من الشّباب في شرفة المنزل تظهر ظلالهم من على الشبابيك الحديديّة.. تقدّمت بخطوات ملؤها الفرح والسعادة وكأنها ولدت من جديد لتحيا في سهرة ممتعة بعيدا عن كل ما قد يؤرقها أو يعاتب ضميرها الرّقيق نحو أيّ شيء كان.. انسكبت بين الجموع بكل رشاقة حتى وصلت لأوّل الرّواق؛ الباب الرئيسي للمنزل.. وهناك كان في انتظارها "رافاييل" صديقها من الجامعة، الذي كان قد خرج ببراءة من تحقيق مكثّف لتوّه بعد أن كان المتّهم رقم واحد في قضية غامضة راح ضحيتها مراهق في مستهلّ العمر بعد اشتباكات مع نفر من المافيا في الجوار.. تراصّ جسديهما في عناق ودود، كان "رفاييل" فرحا جدا لحضور "ماري" أخيرا.. -لا يخفى على أحد ما يكنّ لها من محبة وعشق منذ اللحظة التّي عرفها فيها، ربّما كانت هي الأخرى تعلم ذلك وتكتم الأمر خوفا من أن تجرحه-

صخب كان يملأ الجوّ حيث بالكاد تسمع صوت الشّخص هناك، أو من يبعد عنك بضع سنتيمترات فقط أو حتّى الملتصق بك.. كانت هناك تمتمات من ماري مع ضحكة قد أظهرت ضرس العقل من فِيها.. وهنا عاد عناق شغوف أكثر من ذي قبل لم يطل وخرج "رفاييل" بعده لقضاء حاجيات أخرى تخصّ الحفل في هذا الوقت المتأخر بملامح تختلف كثيرا عن تلك التي كانت تبدو عليها الحيرة نوعا ما.. وكأنه قد تكلّم لتوه مع السعادة في هيئة أنثى.. أو ربما سمع منها السعادة على شكل بضع أحرف تغيّر الحال فور نطقها بسرعة الضوء.. وجدت "ماري" نفسها غريبة عند مدخل المنزل بعد ذهاب "رفاييل".. لم تكن قد تأقلمت بعد مع زملائها من قاعة الفنون في الجامعة وهي التي لم يمضِ على مزاولتها الدراسة في "لوس انجلوس" السنة.. حيث كانت منشغلة في التحضير لمشروع عمل آخر لم تخبر به أي أحد.. ليس غرض السرّ أو الكتمان، ولكن صديقها الوحيد في الجامعة كان رفاييل وبطبعه المتحفظ لم يبادرها بالسّؤال ولا الكلام إلا بتمنياته بالتوفيق لها عندما كانت تخبره أن لديها القليل من العمل خارج الدراسة لتقوم به.. فجأة توهّج مصباح أصفر في الجانب الأيسر من

رأسها، كانت فكرة قد جلبت لها ونيسا في هذه السّهرة الحافلة.. إنّه البابا، البابا شخصيا يحضر لإحياء هذه الحفلة! الصّديق الذي لطالما وجدته مع "رفاييل" في مختلف الأوقات.. ربّما سيفي بالغرض لطرد الملل نوعا ما وسدّ هذا الفراغ.. بحثت عنه بعينيها في باحة المنزل.. ثم في حلقة الرقص في الوسط، وكذلك في الرواق الظاهر أمامها وسلم الدرج أيضا.. لم يكن في أي مكان في الأرجاء..! ربّما لم يأت للحفلة، ولكن ليس من طباعه نقض الوعود كما أخبرها "رفاييل" ذات يوم..! وحقّا كان صادقا في قوله.. ها هو ذا جليس الوحدة وسيجارة بيده يعاقرها تكاد تصل أخمصها.. كان يتّكئ على الحائط يعتكف زاوية من زوايا باحة المنزل مقابلا النافذة لا يعير الجمع الذي حوله اهتماما.. وكأنّه يمثل دوره كرجل ديني مصلح معترف به برغم الكثير من الشائعات حوله.. أو أنه هو بنفسه سيعترف بذلك أو أكثر بقليل.. اعتراف خطير آخر أيضا.. أي أنه سيخبرك بكل تلك السّلع المحظورة التي يتداولها في إطار التجارة حتى وإن كانت مرفوضة إلا أنه يمول إقليما كاملا.. على الأرجح عشرات من هؤلاء المحتفلين هم من رجاله ويحرسونه خفية بالقليل من

البقشيش والكثير من الكوكايين.. جلست بجانبه ولم يحل خجلها أمام روحها المرحة في أن تبادره بتحية تتخللها الدعابة وابتسامتها المعتادة.. دارت تلك التحيات الرسمية الغبية لحظات قليلة قبل أن تقوم بدعوته إلى رقصة ربما لن يتمكّنا من تأديتها إلاّ في حفلة ما وربما لن تكون إلا بعد سنة أو سنتين.. ولم يكن إصرار "البابا" بالرفض عائقا في وجه عناد "ماري" الذي يشبه علكة في خصلات شعر طويل.. تقدّمت "ماري" تلك الفتاة المجنونة بشقاوتها و"البابا" مروّج الخمور في حدود المقاطعة وزير النّساء الملهوف برغم مكانته لا يقتصر الرّقص على فوكس تروت، بريك دانس أو حتّى الباليه.. ربّما بعض الحركات المجنونة بأعضاء الجسم تكون كفيلة لخلق جوّ مختلف من الفن المرح.. ومن ذا الذي لا يشتهي المرح في عالم ساده البغض والحقد والكراهية..؟ هذا ما همّ بفعله هذا الثنائي في مزج بين الرقصات والكثير من المزاح بين طيّاتها.. حتى بدأت حبّات العرق تتطاير منهما من إفراطهما هذا.. وفي غفلة من الملامح الزّاهية تدحرجت ملامح أخرى تبعث على الجدية في موضوع ما من تلك الملامح الأنثوية.. كان طلبا.. أو ربما قضاء حاجة بالمقابل.. هذا ما قد دار بين

الاثنين في أوامر تنبعث من تلك الشفاه البراقة ذات اللون الأحمر الناصع.. كانت "ماري" قد طلبت من "البابا" تنفيذ أمر ما مقابل سهرة تجمعهما في حفلة خاصة بهما لوحدهما.. انزلقت الموافقات من لسان "البابا" مثلما ينزلق المغامر المتزلج من منحدر وعر.. ساد هدوء كان محيطه الروحاني لا يتجاوز "ماري والبابا" وكأنّه يفكر في الأمر برهة من الوقت.. ثم زحف من بين الجميع إلى الرّواق المؤدّي للشارع وقبل أن يختفي طيفه تماما أشار إليها بإشارة النّصر.. وكأنّ الأمر مقضي برمّته منذ البداية.. أي لا داعي للقلق..

***

قام بفرك شاشة هاتفه بعجلة باحثا عن اسم ما في القائمة.. أخذ يرفع الشّريط وينزله بسرعة حتى أوقفه بالتّحديد عند حرف الهجاء "الألف"...

-ألو.. أليغري ؟

أهلا كلاوديو.. كيف حالك ؟

-دعك من حالي، لديّ أخبار سيئة للغاية.. كنت قد نسيت أن أذهب من الحانة بعد رهان البوكر كعادتي إلى شراء أجود أنواع الشامبانيا من خارج المدينة ولكن داهمني النّسيان وذهبت مباشرة إلى البيت دون أن أمرّ بالمكان الخاصّ بهذا.. وبعد ذلك وأنا في طريقي للعودة واقتناء العدد اللّازم من قنان الشامبانيا صادفت عائقا في المنتصف؛ كانت هناك سيّارة معطلة وسط الطريق وسيدة جميلة و... لماذا أخبرك كلّ هذا..! هل تستطيع الذهاب حالا إلى الغابة في حدود المقاطعة لتشتري لنا القليل منها من السوق السّوداء.. البابا ليس هناك لتتعامل معه، خذ حذرك من أتباعه وقم بالمهمة بسرعة فأغلب الشامبانيا قد نفذت وأنا قد تأخّرت...

لماذا نسيت أيّها الأبله؟ أنت حقّا تافه، سأحاول اللّحاق بما تبقّى من الشّراب وآتي إليك حالا.. لا تغادر المنزل أيها الغبي..

تنهّد "كلاوديو" طاردا كل تلك الأنفاس التي كانت تضجره وارتاح لأن "أليغري" سيتكفّل بالسّهرة.. وهو في طريق العودة أذاع الراديو مشغّلا قطعة

موسيقيّة رومانسية تهزّ الوتين محرّكة كلّ جوارحه ومكنوناته العاطفية.. خاصّة وأنها تناسبت مع هذا الوقت المتأخر من اللّيل أين يكون هرمون الحبّ في أوج عطائه.. فيرونيكا.. فيرونيكا آلبا.. صارت تتردّد هذه الكلمات في خياله بنفس نبرة الصوت وتلك الملامح العذبة.. إن الساعة تشير الآن إلى ما يقارب الواحدة إلا ربع بعد منتصف الليل.. هل هي نائمة؟ هل أستطيع الاتصال بها؟ كل هذا وأكثر جال في خاطره قبل أن يجد نفسه قد أخذ الهاتف ودوّن رقمها، وهو ينتظرها تغنّى باسمها مع نغمات الأزرار.. ها هو ذا ينتظر الرد.. الاتّصال الأول انتهى دون إجابة.. الثاني أيضًا وحتى الثالث لم يكن ذا نفع.. هنا قطع الأمل مثل ينع عنب طازج من شجرته؛ أي أن التواصل في هذا اللّيل مستحيل.. ولكن ليس من منطلق أن الحب يصنع المستحيل هي الآن تتصل به بعد أن شاهدت اتصالاته الفائتة..! ربما كل ما في الأمر أنهما قد تخاطرا بكلام رقيق يحسبه الظمآن في الحب عشقا ولكن هو ليس إلا تلك الغرائز التي تثير العاطفة بعد غروب الشمس تحديدا.. دار بينهما الكثير من الحديث

جاء في صياغه لقاء أو ربما دعوة.. وأخيرا كانت عزيمة لقضاء يوم رائع معها في الرّيف، كان العنوان يحمل نافورة وطريق سريع وغيرها..

***

أخذت صفائح الثّلوج تتهاطل مترنحة تتمختر ببياضها الصافي.. على كل حال هي في الأصل بيضاء لولا تلك القلوب السوداء التي ستدوسها ما إن تحل أول نفحات الفجر.. وصل "أليغري" بعد أن تكفّل بمهمة شراء الشامبانيا من السوق السوداء لأحد كتائب المافيا والتهريب التي لم تستطع الحكومة أن تتصدّى لها.. هذا سيفرح السكّير الزنجي "كلاوديو" كثيرا وهو الذي لم يكن ينتظر هذا الخبر السار.. ثلاث طرقات وسط الباب كانت كافية ليهرع "كلاوديو" مسرعا لفتحه معانقا تلك السلة المليئة بقنان الشراب.. ولج الرّجلان باحة المنزل، كان التّعب باديا على ملامحهما.. استلقى "أليغري" على الأريكة بينما كان "كلاوديو" يجلس حذو شقيقه "دانيال" يقرأ كتابه الذي لم يكمله في الحانة بعد ما قاطعه رجال الرهان.. وكعادته كان الفائز الأكبر في لعبة البوكر..

تجعدت ناصيته قليلا وأخذ يروي مجريات يومه التّعيس على صديقه وأخيه ووضع الكتاب جانبا..

-وكأنّ اللَعنة قد أصابت مناكبي.. حظي تعيس كسلحفاة ملقاة على ظهرها في منطقة نائية لا حجر بها ولا شجر.. تشاجرت مع نادل الحانة الذي أكل صفعة طازجة بعد أن تأخر في جلب الشراب.. ما زاد حنقي هو تلك القبلة المرسومة على جانب شفاهه التي تعني أنه قد غيّر طلبنا بقطعة من الساقطات.. هل أنا أساوي هذا؟ تبّا.. والشّراب...! الشراب كان مرا وسيئا للغاية أيضا.. رغم فوزي في طاولة الورق كالعادة ومزاجي المعتدل إلاّ أني نسيت الذهاب مباشرة إلى شراء شامبانيا رأس السنة.. ولم يتوقّف الحظ العاثر عند هذا، بل وأنا ذاهب لاستدراك ما فاتني تصادفت مع عائق غريب في الطريق.. كانت هناك سيارة معطلة أمامي أغلقت الطريق عني.. لأجد أن كل ما ينقص تلك السيارة القليل من البنزين فقط.. وبعد ما كنت أودّ إخماد شعلة الغضب على صاحب السيارة فإذا بسمراء رائعة من الطلّة الأولى غصت في جمالها وبنيتها الجسدية الممشوقة، قمت بإعطائها القليل من البنزين الذي أحمله دائما معي تحسّبا لأيّ

طارئ.. ولا أنكر بأنّي أعجبت بها، كان اسمها "فيرونيكا".. حتى أنّي ظفرت ببطاقتها إلا أنها زادت الطين بلة.. تأخرتُ من جديد عن موعدي وقنان الشراب.. ولولا تدخّلك في هذا الوقت الحرج يا "أليغري" لكان الحال سيئا جدّا.. شكرا لك

-لا عليك، لم يكن الأمر صعبا بقدر ما كان غريبا قليلا.. لأول مرة أتواجد في تلك المنطقة وسوقها السوداء دون استجوابات وأسئلة كثيرة.. بل والأغرب من ذلك هو ذاك الصوت المألوف الذي أمرهم بفتح الطريق كاسرا كل البروتوكولات المعهودة.. صوت كان وراء تلك الأجساد المترامية بأسلحة الـ ak 47 وغيرها.. ولكن بعيدا عن كل هذا ها هي ذي حاجتك من الشامبانيا هناك فوق الطاولة.. على فكرة! نسيت أن أخبركم أني اِلتقيت بـ....

قاطعه "دانيال" دون أن يزيح وجهه من على شاشة الحاسوب:

-جارتنا العجوز الثملة كالعادة أليس كذلك!

-لا، ليست هي.. بل "رافاييل".. هل تذكرتماه؟ صديقنا في تلك العملية المشئومة قبل دخولنا السجن.. كان مسرعا وملامحه بين الفرح والحيرة على حد سواء.. أخبرني بأنه يقيم حفلة في منزله وخرج لتوه ليشتري القليل من اللوازم ثم يعود ليتكفل بالجماهير الحافلة التي تركها وراءه.. تحدثنا لدقائق قليلة فقط وبعدها واصلت طريقي إلى هنا.. هذا كلّه قبل أن أشتري شجرة الميلاد.. آه نسيت..! أخبرتني تلك الشابة المكلفة بالاستقبال والتوجيه في مستودع البيع أن هناك من أتى وحجز لي شجرة على حسابه.. ومن أفضل الأشجار أيضا.. لم تكن قد تذكرت اسمه، بدا لي الأمر غريبا نوعا ما ولكني لم أهتم به كثيرا؛ تركت لها عنواني لإحضار الشّجرة.. كانت عاملة رائعة وأنيقة تأسر الناظرين.. حتى أننا دردشنا إلى وقت متأخر وعزمنا اللقاء مرة أخرى.. اسمها "إيميلي".. يوم مليء بالمفاجآت أليس كذلك؟ هه

انطلقت ضحكات خفيفة من الرّجال الثلاثة.. بدأت الأعين تذبل.. والأفواه تشرع منذرة بنوم عميق.. لم يبرح أحد مكانه، فـ "أليغري" اختار الأريكة لينام فيها حيث لم يقوَ على الحراك، و"كلاوديو" هو الأخر نام في مكانه المفروش

بحصيرة غليظة، أما "دانيال" فبقي على هيئته بجانب الحاسوب إلى أن غط في نوم عميق..

الفصل الرّابع:

المهمّة الثّانية

قد يحدث أن تستمرّ في المشي هكذا في نفس الاتجاه وفي نفس المنظر.. نفس الأفق الذي لن تصل إليه.. كلّ شيء بنفس الصّورة وكأنّك نائم منذ عقود وهذه التّفاصيل هي لوحة معلقة في جفون عينيك من الداخل... ثم فجأة تنطبق السماء على الأرض ويتوه السّافل في دجى العالي ويغوص العالي في وحل السّافل وتتحطم الصورة التي كنت تراها منذ أن بدأت السير.. فلا أنت تدري إن كنت ستنجو من هذه النّهاية، أم ستحملك غيمة شريدة إلى النهاية الحقيقة.

لينا رشاشوة

"...صه! لا تتكلّم، ثق بي.. دعني أنزعه عنك.. لن يجدوك إلاّ بعد عشرة أيام أو أكثر.. سأضمن لك الخلاص في ثلاثة أيام.. ستشعر الآن بالقليل من الألم ولكن بعده راحة للأبد.. فقط ثق بي..."

ما يزال صدى هذه الكلمات يترامى مترنحا في عقلي.. تلك الكلمات من "دانا" أرى بأنها كانت بنبرة ثقة زائدة لا غير.. ها هو اليوم الأوّل ينقضي وتصلني برقية من رسول السجن، السيد "أليغري" يسرد فيها أوصاف المهمة الموالية.. وكأنّه لم يعرف أمر استخراج جهاز الاستشعار بعد.. وهذا دليل بأنّه حبك الخطة ولا أدري أين هو الآن في هذه الأيام الأخيرة من السنة.. قد يكون عاد إلى باناما... ربما..! غادر وترك سيرورة الأمور إلى حاشيته التي التقيتها في آخر يوم لي في السجن.. كم هم أغبياء.. يمكن التغلّب عليهم بالعقل فقط، لا داعي للعنف مع هكذا أشخاص.. على غرار الأمر الجيد في عدم علم هذا الأحمق (المبعوث) أمامي بأمر اقتلاع جهاز التتبع من ساعدي وحضوره بنفسه إلى منزلي، سيقوم هو شخصيا بالمهمة معي وهذا الأمر غير مبشر بالخير.. يا ترى أين هي دانا الآن.. وما الذي تخطط له! هل يعقل أن تكون قد تخلت عني؟

كلها أسئلة لا طائل منها الآن وهذا الضخم أمامي يجبرني على التحرّك الآن لنؤدّي المهمة سويّة.. أي مهمة؟ مستشفى؟ قتل! رجل مخابرات متقاعد؟ أنا طبيب! ما كل هذا الهراء..؟ مؤشر الساعة يشير لوقت الظهيرة والسماء ملبدة بغيوم تنذر بيوم شديد، شعور مثل حزمة من الأفكار تعيق كاهل تفكيري وكأنها لشيخ حطاب أكله الهرم يعود بعد يوم شاق من الغابة دون أن يستطيع ترتيب الحطب بالشكل الصحيح ولا تقطيعه أو نقله للموقد أو للمشتري.. مثله لم أستطع ترتيب بنيّات أفكاري ولا تقليمها وتصفيفها بالشكل الذي يستوجب وتكريرها عساها تلهب فكرة ما..! قاطعت سير الأفكار بهذه الطريقة المختلطة وتركتها للقدر.. تنهدت بالقدر الكافي لملء رئتيّ بمخزون من الهواء يمكنني من الوصول إلى السيارة هناك بلا تفكير مشتت كهذا.. لم تكن سيارتي هذه المرة، بل سيارة سوداء عملاقة مخيفة، قام الرّسول بفتح الباب لي لأصعد من الخلف، وارتمى إلى مقعد السائق متجها إلى الأمام؛ إلى وجهة لا أعرف عنها غير بعض المؤشرات الدّالة على المهمة.. بدأ السحاب يطلق عبراته الديسمبرية الجميلة فوق سقف العربة الذي فوق رؤوسنا، أنا أسمع وقعه

المتسارع وكأنّه يعزف سيمفونية موزارتية حماسية أو مرعبة وأنا التائه هنا بين الشعور بالحيرة، الرعب، الارتباك وغيرها الكثير من المشاعر المشتتة المتضاربة.. نصف ساعة من السير بين هذه الطرقات الضيقة حتى وجدت نفسي أمام مبنى كبير، أقصد مستشفى كبير.. توقفت السيارة فجأة وخرج السائق من أمامي راجعا للخلف ليفتح لي الباب حتّى أترجّل منها.. أعطاني أقصوصة صغيرة عليها ثلاثة عناصر مكتوبة وانصرف مسرعا تاركا خلفه آثار مياه موحلة من البركة في الأرض على ثيابي.. قرأت تلك الأقصوصة بتمعن ورحت أحاول اكتشاف أيّ شيء؛ سرّ ما أو ثغرة بها! لكن يبدو أنهم يعطون المهام طازجة ومع ذلك عليّ أن أقبل رغما عني.. توجّهت لرواق الخدم من موظفين وأطباء وممرضين وما تحتويه من ألبسة وغيرها مما يحتاجه الجميع؛ حتى رجال الصيانة.. فتحت الباب الأول كما أشارت هذه الورقة التي في يدي، وقبل أخر جزء من دخول كل جسدي رميت آخر النظرات إلى طرفي الرواق أحاول رؤية أي شخص ما قد رآني ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد.. تلمست الجدران بجانب الباب أربت عليها بكفي محاولا البحث عن قاطعة

الكهرباء هنا وهناك.. أنرت الضوء لأرى الكثير من الخراب محمّلا فوق بعضه البعض من علب الكرتون الحاملة للكثير من المستلزمات... غرفة فوضوية صغيرة وكأنّها مكبّ خردوات لا غرفة بمشفى كبير، الكثير من معدات الطب والمآزر معلقة في كل مكان.. قمت بتغير ثيابي هناك وأتممت كل ما عليّ فعله في الداخل وها أنا أخرج للرواق بلباس الطبيب هذا، عليّ ألا أقلق.. فالأمور كلها محبوكة بعناية تامة.. والدّليل هذه البطاقة الطبية التي في يدي والموقّعة باسمي؛ بطاقة كان قد أحضرها مبعوث السّجن الموكّل بأداء المهمة معي، أعطاني إياها قبل ذهابه ليعود ربما مرة أخرى كما ذكر.. العنصر الأوّل الخاص بتغيير الملابس وتمثيل دور الطبيب تمام أتممته وتخلصت منه.. فجأة أرى زميلي الجديد منتصبا أمامي بصرامة في أوّل الخطوات لي في ذلك الرواق، حمل يده موجها نحوي هاتفا خلويا دون أن يتكلم وكأنه يدرس الوقت بعناية تامة ويعرف ما يفعل بثقة كبيرة.. أمسكته من دون أن أعرف ما المنصوص عليّ ولم بيدي هذا الهاتف أو ماذا أفعل به حتى! فجأة يرنّ بإزعاج لينتشلني من حيرتي..! أشار لي بأن أرد على الاتصال وحمل برقية من جيب قميصه مشيرا

لي أن فيها الردود اللازم قولها في هذا الاتصال الغريب.. دار حوار رسمي طويل وأنا أجيب بكل ثقة بما هو وارد في تلك الورقة اللعينة.. كانت محطّة التلفاز تستضيف شخصية ما، وأنا أمثل دور البروفيسور بهذا الاتصال.. لا أدري ما الغرض من هذه السهولة في المهمّات، أم أن هناك سر في الأمر أجهله! في الأخير وبعد نقاش طويل عرفت أنهم يحاربون طبيبا اخترع دواء ما، لا أدري ما هي الأسباب لذلك ولكنهم ما زالوا يحاربون التطوّر في أي مجال كان.. السؤال يبقى مطروحا، ما هذا؟ أو لماذا لا يدعمون الشباب ليرقى ولا يبقى مجرد جثة في ذلك السجن، حتى غرسوا فكرة الهجرة في عقول الجميع منذ الصّغر وكأنّهم أرضعوهم إيّاها مع حليب أمّهاتهم..! فالجميع يريد الخلاص والحرية..!

على كلٍّ العنصر الثاني تمام.. فجأة يرن هاتفي الخلوي، رفعت عيني إلى حارسي هذا أو الرسول المبعوث لي أو شريكي في المهمة لا أدري ماذا أطلق عليه بالضّبط.. المهم أنه سمح لي بالرد بكل برودة وكأنّه يعلم من المتصل وما الغرض من الاتصال أيضا، ثقته بنفسه بدأت تثير الرّيبة في نفسي.. دارت في مخيلتي

جملة كنت قد سمعتها في الخطاب الموجّه لي من السيد "أليغري" في اليوم الأخير من السجن..

"في هذا العالم عليك أن تخاف من الأمور السّهلة في أغلب الأحيان "

والغريب في هذا أنه وبالصدفة كان السيد "أليغري" شخصيا هو المتصل، بدأت أشتمّ رائحة كارثة ما بالقرب منّي فليس من عادته الاتصال بأيٍّ كان.. بدأ العرق يتصبب مني وأنا أحاول السيطرة على نفسي، تنهدت قليلا ثم قمت بالرد على الاتصال.. صوت أنثوي ينوح وكأنّه تحت تأثير العذاب، وفجأة "رامو، أنا أختك.. أرجوك ساعدني.. رامـ..."

اتسعت عيناي في غضب وبدأت صور متداخلة تتضارب في ذاكرتي تعيد بعض المشاهد المفقودة.. بدأت أشعر بصداع إثر ذلك ودوار غريب تداخلت فيه أفكاري وكأن ذاكرتي عادت نسبيّا من جديد بعد أن فقدتها.. هذا الصّوت ليس غريبا على أذني، نعم هي.. هي أختي بكل تأكيد.. صرخت بالكثير من

الأسئلة، أين أنت؟ أخبريني هيا.. أين؟ وتحول الصوت من صوت فتاة إلى صوت رجل.. "أليغري" في الجهة الأخرى من الاتصال...

-رامو.. السيد رامو.. الصعلوك الخبيث.. هل تحاول التحايل أيها المنحرف؟.. عائلتك أسيرة عندنا.. وإن لم تقم بهذه المهمة.. سنرسل لك فيديوهات في كل ساعة متأخرة لأبشع طرق العذاب المطبّقة عليهم حتى ننتهي بقتلهم أخيرا.. كل الوقت لك، العنصر الثالث لم يكتمل بعد.. وهو الآن بين يديك.. إما أن تقوم بهذه المهمة، أو تفقد الكثير من أحبائك...

لم يترك لي ولو جزءًا بسيطا للاستفسار.. إما أن أنهي المهمة أو أخسر عائلتي وقام بقطع الاتصال.. أمر صعب أن تكون المؤشر المتراقص بين كفّتي ميزان كلتاهما بنفس الحجم؛ مهمة وحشية وعائلتك؛ إمّا الموت أو الموت...!

ها أنذا أقوم ببعض الأعمال الروتينية لأي طبيب، أو ممرض لا أدري ما هي صفتي الآن بالتحديد..! لكنني وجدت نفسي بهذا الزي عامل بأوراق رسمية هنا.. حملت بعض الأغراض أبحث عن الغرفة 17 في الأروقة، كنت أظن أني

سأجدها بسهولة بما أن الرقم صغير مقارنة بضخامة هذا المستشفى والذي يحوي حتما مئات الغرف.. ولكن كان الأمر صعبا فأنا لم أجد حتى أروقة الغرف لسوء الطّرق المتداخلة وكثرتها، نصف ساعة لعينة تمر الآن.. بيني وبين أول فيديو نصف ساعة أخرى.. أطلقت العنان لرجليّ مترصدا أي غرفة بالرقم 17 أو قريبة منه.. عشر دقائق أخرى تمر دون جدوى ولا جديد فيها يذكر سوى هذه الممرّضة التي اصطدمت بي وهي مسرعة هكذا.. بدت لي مألوفة بعض الشيء ولكني لم أستطع التعرف على ملامحها التي كانت تظهر بشكل جزئي اختفى فجأة في آخر الرواق، والآن لم تتبقّ إلا عشر دقائق أخرى لتنتهي الساعة الأولى.. وجدت الغرفة أخيرا، بعدما كنت أهرول بطريقة أقرب للركض منها إلى الهرولة، عاد رأسي وأعلى كتفي إلى الخلف قليلا وسار الجسد خطوة ونصف خطوة للأمام.. كنت قد لمحت الرقم 17 في أحد الأبواب، نعم كان ذلك صحيحا، عدت للخلف قليلا.. وقفت أمام الباب حائرا بين فتحه وإنهاء المهمة، أو انتظار الفيديو الأول عساه مجرد كذبة لتضليلي. خمس دقائق بيني وبين وصول الفيديو.. دخلت فجأة مسرعا إلى الغرفة، كانت خاوية لا

تحمل شيئا ما عدا سريرا واحدا في الوسط به شيخ ممدد، أراقب آخر الثواني من نهاية الساعة الأولى وبين كل جزء وآخر أرمي نظرات هنا وهناك.. ما بين الهاتف والسرير؛ الخلاص أو الجحيم.. لحظة!! ما هذه الرسالة؟ هل حقا وصل الفيديو؟ هل أقوم بفتحه؟ نعم.. لا، بل يجب فتحه.. نعم سأفعل.. فركت شاشته ذاهبا إلى أيقونة الرسائل فإذا بالصورة الثابتة لبداية الفيديو لفتاة سمراء صغيرة مراهقة بعمر الزهور.. بلباس بالي وفي مكان يبدو موحشا للغاية.. نعم هي، بالتأكيد هي أختي.. تداخلت الصور في رأسي من جديد وتشتت تفكيري واختلط الماضي بالحاضر وتهت برهة من الزمن ثم ضغطت على المثلث في الوسط ليشتغل الفيديو وها هو السوط يسّاقط على جسمها بكل قوة، ضربة تلو الأخرى.. صراخ وألم.. يضعون منشفة في فمها ويفتحون صنبور المياه فوق وجهها ويغلقونه في آخر لحظة من انقطاع أنفاسها.. مرروا السكين فوق سواعدها حتى تشوهت كلها بالدماء.. شعرت به وكأنه بي أنا؛ كان ساخنا جدا.. بالتأكيد سيعلمون أنها نقطة ضعفي، راحوا يتنطّطون هنا وهناك حولها كالقردة يداعبون شعرها ويحاولون إثارة وحشيتي أكثر ممّا هي

عليه الآن من شدة التوتر والقلق.. والغضب الكثير! صار بخار العرق يتطاير من وجهي المحمر وتلفت أعصابي التي لم يعد بإمكاني التحكم فيها وخارت قواي.. وما زاد غيضي هو أن الفيديو غير مكتمل، في منتصفه تم حذف باقي المشاهد..! هل قتلوها؟ هل ما زالت تحت التعذيب؟ وأعدت ناظري إلى السرير مرة ثانية؟ رجل في بداية الشيخوخة، أو رجل مخابرات متقاعد.. المهمة هنا، مهمّة قتل.. لا وجود لأيّ عذاب أو ألم! مجرّد حقنة صغيرة كافية لتجعله جثة هامدة هنا.. هل سأقوم بهذه الخطيئة حقا؟ هل سأتحول وحشا فوق هذه الوحشية التي اكتسبتها من السّجن والعذاب النفسي والجسدي...؟ وبعيدا عن كلّ هذا، هل سأنفس عمّا شاهدته من عذاب لعائلتي في شريط الفيديو قبل قليل؟ هل سيوفون بالوعود أم أن مجالسهم مجرد لغو وضرب من الخيال لا صحة فيها كما نعرف عن مجالسهم الكاذبة؟ بين حقنة وسلامة عائلتي، الحرية وقتل شيخ بريء.. أو مصير مجهول لي ولعائلتي.. عليّ أن أختار ما بين الأنا الخاص بي والأنا الخاص بالغير!! أين هي "دانا" الآن! ألم تقل بأنها ستحل كلّ الأمور في غضون ثلاثة أيام؟ دوار رهيب بدأ يفتك برأسي من

جراء القلق.. إن الحياة قاسية جدا.. سترميك بعلب الفشار والخضر الفاسدة وكل ما هو مقرف في كل لحظة فشل.. وبالمقابل تجعل منك بطلا حقيقيا إن نجحت في أمر ما، إما أن لا تبالي وتنجح.. أو تتقبل الإهانة! هل سأنجح في هذه المهمة وترمي عليّ الدنيا صور عائلتي والذنب الذي سيعتليني أو الجنون ربما.. أو أنجح بطريقة أو بأخرى..؟

تأملت الحقنة التي في يدي للحظة، نظرت إلى الباب للتأكد من أنه مغلق.. حملقت في أرجاء الغرفة، في ذلك الجهاز الذي يحمل خطا منكسرا يعلو وينزل في كل مرة دالا على حياة الشخص بصوت صفير متقطع.. تأمّلت الشيخ الممدّد هناك من جديد متسائلا! هل سأقوم بهذه الجريمة حقا؟ تلك التجاعيد على ناصيته والابتسامة المرسومة لن تشفع لي إن فعلتها ولن تدعني أيضا أتجرّد من إنسانيتي ولو للحظة، انقباض في الصدر جعلني أكتم صرخة لما أنا عليه من تأزم وضيق وشرود قاتل.. سقطت الحقنة من يدي بعد هذه الرعشة التي أصابتني والانهيار الذي تملكني، لم أعد أشعر بالشق الأيمن من رأسي بعد كل هذا التعب النفسي الذي أدخلته معي إلى هنا! أمسكت رأسي

ضاغطا عليه بكفيّ بكل قوتي لأهدئ من روعي وأكفكف دمعي المتساقط غصبا عنّي وصرت أتأخر خطوات متتالية للخلف حتى اصطدمت بالباب خلفي، فاستيقظ ذلك الشيخ الذي كان سيموت قبل قليل.. أو ربما سيفعل بعد دقائق أخرى قادمة!

لم يكن يفهم ما الذي يجري فراح يبتسم لي وما أشد قسوة الشيوخ لما تملكه من براءة ودفء جد حنون، استقمت واقفا بشكل معتدل وضربت على مئزري بسرعة وكأني أنفض غبارا من عليه، محاولا ترتيبه ومررت يدي على ياقته ومسحت بكفي من على مساحة وجهي من الأعلى للأسفل لأطرد ما تبقى من الملامح السابقة وأمثل دورا جديدا أرتدي فيه وجها مبتهجا!

إنّه لأمر مقرف حقّا ما نمارسه نحن البشر من نفاق، القاتل منّا يبتسم مع ضحيته ويأخذها بين يديه معانقا ليغرس فيها سكاكينه من الخلف بكل أريحية وكأنه يغرس بها ورودا تبعث حبّا فوّاحا..!

أشار إليّ بديه رافعا ساعده بطريقة بطيئة جدا شادا على قبضة يده مشيرا بإبهامه إلى داخل فمه كما نفعل حين نطلب عصير ما أو مشروب غازي من شخص بعيد جدا وسرعان ما يفهم ذلك هو الآخر.. هذا المسكين لم يكن يطلب إلا جرعة من الماء ليروي عطشه، هو ميت على كل حال فلا بأس بآخر كوب ماء له.. أحضرت كأسا من الطاولة الأخرى في الزاوية هناك وسكبت له من القارورة التي بجانبه، بدأ يمرر مخزون المياه هذا إلى جوفه عبر فم فقير الأسنان والصحة التي كانت لتكون في شفاهه البيضاء هذه!

حقيقة انفطر قلبي لهذا المشهد، أقصد عندما رفع يده واحتضن بكفّه يدي مستبشرا في هذا الطبيب خيرا وكان ملمس كفه المرتعش على يدي يزيد من وتيرة نبض قلبي بشكل رهيب!

-آسف أنا يا جدي، هذه الحياة تجعل منك وحشا قاسيا شئت ذلك أم أبيته.. لم أكن أريد التجرد من مشاعري لكن ما باليد حيلة حقا..

قلت هذا وأنا أرى في أعماق عينيه اللتان تقولان بأنهما لم تفهما شيئا ممّ أقول ولا تعلمان شيئا غير أن الأطباء من أسباب النجاة.. مع أننا نعرف عن أطباء اليوم كثيرا من الإجرام بغير قصد أو بقصد ربّما حقيقي لعلمهم التام بنقصهم في الخبرة مع ذلك يجعلون من مهنة الطب مصدرا للكسب المادّي ككلّ الأعمال الربحية الأخرى وكأنها تجارة بأرواح الناس! خاصة لدخلها الذي يعتبر جيّدا في زمن صار فيه افتقارك للمال يجعلك تخشى التوجّه للطبيب الذي لن يستقبلك أصلا ولن يهمّه أمرك سواءً متّ بعدها أو عشت.. والذّنب مرمي أيضا على من جعلهم يستلمون تلك المناصب وغيرهم الكثير...

أمسكت يده التي كانت موضوعة على ساعدي وأدرت رأسي إلى الخلف، إلى الأسفل قليلا باحثا عن الحقنة التي سقطت من يدي قبل قليل.. لم تكن بعيدة عني!

انحنيت قليلا منها لألتقطها وقمت برفعها بأطراف أصابعي ووضعتها في الوضعية الصحيحة لاستعمالها.. عروقك يا جدي بارزة بشدة وهذا سيسهل عليّ الأمر

كثيرا.. هل لديك ما تقوله غير هذه الابتسامة التي توبّخني بها رغم أنّك لا تعلم أي شيء أو ما سيصيبك؟

أو حياتك التي ستنتهي بعد لحظات... أنت لا تسمعني طبعا كباقي الشيوخ في مثل سنك والذين تضعف عندهم حاسة السمع!أنا آسف حقا أيها الجد.. ما كان عليك العمل في ذلك السجن فهم لن يعطوك كل أسرارهم بالمجان، ها أنت الآن مقبل على الموت لأنك تشكل خطرا عليهم إن تمردت مع أنك لا تستطيع حتى لفظ اسمك كاملا ربما.. وهذا هو حال الجميع عبر تعسفهم..

لا تجعل كذبة حرية التعبير التي أعطوها للمساجين تجعلك تتكلم بكل راحة.. سيتركونك حرا طليقا وما إن تأتي الفرصة الأولى لذلك لن يبقى منك إلاّ خبر اختفاء مريب متداول مع الناس، أو ربما جثة في مكان معزول ما!

ففي اللحظة التي تشكل فيها خطرا بحقائق قد تضرهم سيسقط ذلك البند الخاص بحرية التعبير ويتم دحضك بشكل من الأشكال وإزاحتك عن طريقهم

سيكون أمرا لا بدّ منه، ولن أضمن لك بأن الخطر سيكون مقتصرا عليك فقط... ربما عائلتك أيضا!

هل تعلم أمرا يا جدي! لقد كنت سجينا في أحد المباني التي لم أعرف عنها الكثير لحد الآن، لا أتذكر منها سوى ما قضيته في تلك الغرفة أو في ساحة السجن.. حاولت الفرار من هناك أكثر من مرة! لم يكن لي أي حقّ هناك ومع ذلك كنت مجبرا على ممارسة الواجبات رغما عني، ولست وحدي... وهذا ما جعل الجميع يفكر في الهروب والخلاص.. كانت هناك غرفة خاصة بالمساجين المرضى يشتغل فيها بعض الممرضين غير الأكفاء! ودليل ذلك هو إن مرض أحد سادة السجن فقط بالزكام يهرعون إلى الطائرة في الساحة الخلفية ليعالجوه خارج هذا المبنى.. ونحن كنا نموت هناك.. الجميع يعلم بالأموال الطائلة التي يمتاز بها ذلك السجن الكبير والتي تدخل جوفه فتختفي وكأنه ثقب أسود يمتصّ عمل ساكنيه!! كلّ هذه الامتيازات بذاك المبنى ولكن لا توجد به غرف جيّدة خاصة بالمحتجزين ولا غذاء كافي ولا أروقة مرممة ولا أي شيء صالح.. أعلم يا جدي أن هذا كلام خطير جدا إن التقطته كاميرا المراقبة في زوايا

الغرفة هناك! ولكن تأكد من أني لست فريسة سهلة.. أترى كل هذه الكاميرات! إنها كاذبة ولا تقول الحقيقة! فمدير الصيانة الخاص بها يغلقها على أي حقيقة قد تضره أو تضر مشفاه الذي يعمل به وفي المقابل يمرر الصور التي تخدمه فقط ليراها مديره.. على ذكر هذا يأخذني الحنين إلى وطني! وطني الذي نلقب فيه هذا النوع بالـ "شيات" أي أنه له دور ماسحة الأحذية ليكسب الولاء وبعض المصالح.. أو ربما عادة سيئة فقط!

ولكي لا أكون مبالغا في الأمر حتى نحن السجناء حمقى للغاية..! ففي كل مرة ينصّبون عنا سجينا ما ليوصل صوتنا. لا السجين يبلّغ صوتنا ولا نحن نستحي بالمقاطعة في سلام.. حتى وإن وصل السجين الموكّل عنا لن يرفض الولاء لهم طبعا لما سيلقى من نفوذ! نحن لا نريد التمرّد! نريد حقوقنا فقط بما أنهم لا ينسون إرغامنا على تأدية الواجبات.

كنت أكلمه وهو يحملق فيّ ولا يدري ما الذي يخرج من بين شفاهي التي يرى فقط حركاتها المتسارعة تارة والمتباطئة تارة أخرى ولا يصل أثير الصوت المفرج

عليه منها لسمعه الشبه منعدم، بدأت أمرر إبرة الحقنة على طول عرقه البارز منتظرا تلك الشحنة الخبيثة التي تجعلني أغمض عيني وأقوم بغرسها.. في هذه اللحظات سقطت دمعة على ساعده كانت قد اجتمعت مع أخريات أبين النزول ولكنها تمردت لفعل ذلك..

نحن دائما نبكي ولا صوت لنا يا جدي! فلا أحد سيسمعنا أصلا، لك عظيم الشرف لأنك ستموت ميتة سليمة كهذه الآن.. ولا أدري لِمَ أُكلمك هكذا مع أن الوقت يمضي والمهمة لها حدود زمنية عليّ إتمامها فيها، هل أنت مستعد لتوديع الحياة الآن؟ على ذكر الوداع، إنّه لمن أشد اللحظات بؤسا في الحياة هي الوداع؛ وداع صديق أو حبيب، وداع العائلة.. والأصعب منهم وداع الوطن... ولكن هناك حالات مثلك مرغمة على الوداع.. ولا أظن أن لك وصية أو كلمة أخيرة لتقولها! وسنك الكبير هذا يدل على أنك لك أحفاد كثر في الحياة... لدي عائلة أيضا أتصدّق! قبل قليل فقط بدأت أتذكر منها القليل، قد عانيت بسبب ذاكرتي المفقودة أو لأقل المسلوبة..! هم الآن في خطر وموتك الآن ربما

سيكون سببا لخلاصهم! أظن أني بدأت أتحول إلى مريض نفسي حقيقي بهذا الكلام الغريب...

ماذا! هل سمعت ذلك أيها الجد؟أحد ما قادم في الرواق، لا بد من إنهاء المهمة الآن.. أنا آسف حقا...

حملت ذراعه ممسكا بساعده المليء بالتجاعيد والعروق البارزة واخترت المعصم الأيسر الذي يمرر عروقا حساسة جدا وكافية لقتله بسرعة.. الصوت يزيد أكثر فأكثر وأنا ما أزال مترددا في الذي سأقوم به الآن! هل لديك كلمة أخيرة..؟ لا! حسنا...

الفصل الخامس:

لحظة اللّقاء

يتّخذ القبح مأواه ما بين ثنايا رداء القداسة ويجعل للحرية أحكاما أخرى حتى يفرض هيمنته.. لكن ما إن تصله أيدي النّساء حتّى يصبح للانتقام حكما أخبث.

كوثر يحياوي

قد تلتقي وريقات خضراء في عز الشتاء وقد تجتمع سحب سوداء في سماء الصيف.. بعض اللقاءات قد تكون غريبة في اللحظة الأولى ولكن لكل شيء سبب.. وقد تكون الأسباب موضوعة في الطبيعة المسيرة أصلا أو من صنع البشر.. حيث وراء كل حدث تختلف الأقوال فهناك من يقول بأن هذا محض صدفة وهناك من يقول بأنه حبكة من الطبيعة التي تدير الأمور بشكل متناسق؛ أي ينسب ذلك للقدر...

في الأخير لا شيء يحدث عبثا، ولا توجد ما يدعى صدفة...

31 كانون الأول/ 11 صباحا..

يتقطّع نومه؛ تتباعد أهدابه بصعوبة عن بعضها تارة وتعود للالتصاق يبعضها تارة أخرى تسترق لحظة غفوة.. بين هذا وذاك يلمح ظل "دانيال" منتصبا يحضر شيئا ما.. يستيقظ "كلاوديو" كعادته في هذا الوقت كل صباح متكاسلا، يحمل الخمول على عاتقه بعد سهرات الرهان والثمالة.. أخذ يحرك أطرافه كالأبله في كل اتجاه يحاول استعادة لياقته بهذه الحركات المطاطية

الغريبة.. دس قبضة يده في مقلته الباهتة وراح يفرك عينه يطرد النعاس من عليها وهو يقول بصوت متماطل:

-دانيال..! صباح الخير، إلى أين؟

عندي أمور كثيرة أقضيها اليوم.. على الأغلب لن أبيت هنا الليلة، لا تقلق بشأني فأنا مدعو لسهرة مع بعض الشباب لا غير..

قالها "دانيال" وهو يقفل آخر زر من معطفه الكبير..

لم يكترث "كلاوديو" بالأمر وعاد لينام بضع دقائق إضافية..

ثم قال من تحت الغطاء:

-ماذا عن "أليغري" أين هو الآن؟

غادر في الصباح الباكر هه.. يبدو نشيطا اليوم..!

انتهى الحديث القصير على وقع أقدام "دانيال" في هذا الهدوء تغادر البيت ختمتها طرقة الباب وهو وينغلق..

بعد ربع ساعة تحرك "كلاوديو" متثاقلا من مكانه متجها نحو الحمام يدلك الأرض بخفه الريشي غير قادر حتى على رفع ساقه بضع السنتمترات عن الأرض ليخطو بسهولة.. أخذ يحدق في المرآة يرى انعكاس صورته من عليها.. غاص في ملامحه القاسية يتذكر بعض الأحداث القديمة بصوت حشرجة الضمير...

كانت صور متقطعة تدور في خياله وكأنها على أرض الواقع، قضبان حديدية، دماء، جريمة قتل وغيرها الكثير... انقطعت فجأة بقطرات من المياه وهو يغسل وجهه كانت كافية لتخرج "كلاوديو" من قوقعة الصدمة التي تلاحقه من حين لحين.. عاد لخزانته الكبيرة وارتدى قميصا أسودا مزخرفا عليه {L.A} بالأبجدية الإنجليزية.. إنها أحرف ترمز لاسم مدينة "لوس انجلوس" كثيرا ما توجد في الأقمشة كشعبية وموضة قديمة.. رمى فوقه معطفا من الصوف ليظهر ككتلة كبيرة بسبب عضلاته المفتولة.. مرر نظرات أخيرة على أبعاد جسمه يتفقد أخر

اللمسات من ياقة المعطف وسيور الحذاء إلى ما قد يحتاج حمله من مفاتيح، هاتف، علبة السجائر، بعض البقشيش وبطاقة تعريفه الخاصة.. ترك الباب خلف وراح يستمتع بالثلج مع جارته الشقراء الجميلة التي كانت تبني رجل ثلج كبير تستعيد ذكريات الطفولة مع ابنها الصغير.. نادت عليه بابتهاج:

-كلاوديو.. هيا تعال ربما هذا آخر ثلج تستمتع به هه...

شعر بغصة في قلبه وابتلع ريقه بصعوبة على غير العادة إثر تلك الكلمات ورد بتمتمات غير مفهومة مفادها أنه قادم...

مرت ثلاثون دقيقة من اللعب في هذا البرد القارص، ها هما الآن ينهيان نحت رجل الثلج بوضع جزرة ممشوقة وسط وجهه ولحاف أحمر اللون..

فوت "كلاوديو" على نفسه فرصة الغداء.. -قد تناهز عمر الثمانين بصحة جيدة ودون أن تقلع عن السجائر، ولكن تذكر أنك ستحرم نفسك من الكثير من الوجبات اللذيذة بفقدان الشهية- عاد إلى مضجعه يداول الحاسوب بين المواقع

بجانبه قنينة من الشامبانيا، فجأة ومضت تلك الكلمات التي لقنتها له صديقته الجديدة صاحبة السيارة الصفراء.. تلك التي بالكاد توقف خلفها متفاديا حادث سير في الطريق السريع.. إنها فيرونيكا.. فيرونيكا ألبا.. كانت قد أخبرته بأنها ستنتظر اتصاله بعد الظهيرة.

31 كانون الأول /2 مساء..

حمل هاتفه بخفة ودون رقمها بسرعة وأخذ ينتظر ردها على وقع طنين نقل الاتصال.. وكأنها كانت تحمل الهاتف منتظرة مثل هذا الاتصال المفاجئ.. كان الرد سريعا بكلمات رقيقة بنبرة أنثوية آسرة..

ألو.. آنسة فيرونيكا على الخط، من معي؟

-اممم كلاوديو.. كلاوديو من حادث السير ليلة أمس، هل تذكرتني؟ كنت قد أعطيتني بطاقتك على أن أتصل بك في مثل هذا الوقت أليس كذلك؟

أوه كلاوديو يسرني حقا أنك اتصلت بي.. من دون مقدمات لقد راقني تصرّفك البارحة ولم أكف عن التفكير بك أو برد الجميل... ما رأيك لو حضرت لسهرة لشخصين ودعوتك..! كلاوديو وفيرونيكا فقط.. ها ما رأيك؟ هل ستلبي دعوتي؟

-فكرة رائعة بالتّأكيد لن تسمعي إلا الموافقة من لساني.. متى؟ وأين؟

العاشرة مساءً.. في كوخ صغير بجانب الطريق السريع أول منعطف داخل الغابة بجانب الوادي عند النافورة الكبيرة..

-لك ذلك.. حسنا سأكون في الموعد والمكان المناسب.. شكرا، شكرا لك.

انقطع الاتصال ببعض من كلمات التوديع الرسمية و"كلاوديو" لم يبرح خياله شريط جمالية تلك السهرة المنتظرة...

31 كانون الأول/ 4 مساء..

كان "دانيال" يجول في شوارع المدينة يحاول شراء هدية صغيرة كعطر أو ساعة يد تليق بحبيبته "جاسمين".. الفتاة المسلمة من موقع التواصل الاجتماعي.. حيث سبق وأن عقدا موعدا للقاء في سهرة ليلة رأس السنة، ولم يتبقّ على هذا اللقاء سوى بضع ساعات ستمرّ ثقيلة جدّا..

31 كانون الأول/ 6 مساء..

زين "أليغري" شجرة رأس السنة في منزله المفتوح للكثير من الصعاليك وبعض النساء اللاتي يقطنَ معه منذ فترة طويلة.. وضع النجمة فوق الشجرة وودع الجميع مستأذنا بالخروج... كل هذا الوقت الذي مضى كانت تجول في رأسه صورة موظفة بزي عمل أسود وأبيض أنيق بطريقة مثيرة.. إنها "إيميلي" من محل بائع أشجار الميلاد.. أين التقاها وهو مصطف في طابور الانتظار الطويل وتوطدت العلاقة بمحض سويعة من الدردشة في مختلف المواضيع.. حيث كان مسك الختام عزيمة ككل العشاق الجدد لسهرة ينفردا بها؛ هو وهي فقط..

يفصل بينه وبين هذه السهرة الرائعة أربع ساعات.. هذا ما جعله يخرج مهرولا يحاول الوصول قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل؛ لأن مكان اللقاء بعيد قليلا، في كوخ صغير بجانب الطريق السريع أول منعطف داخل الغابة بجانب الوادي عند النافورة الكبيرة..!

31 كانون الأول/ 8 مساء..

بعدما غادر الكنيسة كان "البابا" في عرينه مع مجموعة من المافيا يحسبون دخل بيع الخمور والكوكايين من السوق السوداء.. انتهت تلك الأرقام المتفاوتة والحسابات المتداخلة وتم توزيع المال حسب الرتب.. أخذ هو الأخر حصة من كل هذا وخرج بسيارته الرباعية الدفع متجها نحو موعد هام.. إنه نفس الموعد الذي عقده مع ماري.. "ماري بارمسترونغ" من حفل "رافاييل" المنزلي ليلة أمس.. وقد كان هذا الموعد عبارة عن سهرة انفرادية تليق بليلة مثل رأس السنة لأخذ قسط من الراحة بعيدا عن متاعب الحياة.. جاء هذا بعد اتفاق

"ماري والبابا" في حلقة الرقص؛ كان العنوان غريبا نوعا ما فيه نافورة وغابة وعلامات أخرى..

31 كانون الأول/ 9 مساء

إنهم مخطئون في رسم صورة الجبال الموحشة في الليل.. لا يوجد أجمل من التنزه تحت النجوم وضوء القمر واختلاس النظر للسماء في يوم مثلج بين الأشجار في مكان منعزل كالجبل.. هكذا كان الحال بالنسبة لـ "كلاوديو" الذي ركن سيارته بعيدا جدا وراح يتنزه في الجوار؛ متوجها إلى العنوان الذي عقد فيه الموعد مع صديقته الجديدة فيرونيكا.. أخذ يمشي وهو يسرح بناظره في كل مكان محاولا اقتفاء ظل المنزل المعنون.. ولا تبرح باله تلك الصور السافلة والرذيلة التي ستجمعه بها بعد دقائق من الآن..

إن البشر نوعان؛ سافل ورذيل.. فالسافل هو البشر العادي بكل الدناءة التي تحتويه، والرذيل من لم يستطع حجزها بداخله وإخمادها..

وصل إلى المكان المقصود أخيرا، بدأ يجوب ساحته باحثا عن أثر فيرونيكا التي تنتظره كما جاء في الاتصال.. ولكن بدا الأمر غريب.. من هناك! لم تخبرني أن هناك ضيوف غيري.. لحظة.. هل هذا "أليغري" هناك؟ ولكن ما الذي يفعله هنا! الأمر مثير للريبة..

مرحبا.. أليغري!! هل هذا أنت؟

استدار "أليغري" فجأة والذهول باديا على ملامحه الباهتة محاولا استيعاب الحدث.. هل هذه صدفة؟ ثم قال ولسانه شبه منعقد من الحيرة:

-كلاوديو! ما هذه الصدفة هه؟ أنا.. أنا هنا لأجل صديق قديم دعاني لقضاء ليلة رأس السنة..

قال هذا وكأن أحدا ما قد سأله.. تنهد ثم أردف سريعا:

وأنت..؟

أنا.. كنت أتنزه في الجوار.. صادفني نور هذا المنزل من بعيد أردت طلب الإذن لأخذ راحة خفيفة إلى أن تتوقف الثلوج عن التساقط، لا غير..

أطلق العالم الفرنسي ألفريد صوفي على الدول المتخلفة اسم العالم الثالث.. وها أنذا من هذا المنبر أطلق على الكاذبين والمنافقين اسم الشعب الثالث أين يقبع بعد مرحلة ثانية خاوية من التصنيف...!

فلا "كلاوديو" كان يقول الحقيقة ولا "أليغري" كان يفعل..

"كلاوديو" قد أتى بغرائز حيوانية مشبعة بالعاطفة الحقيرة لأجل لقاء "فيرونيكا" فتاة حادثة الطريق السريع..

و"أليغري" هو الآخر قد أتى لأجل موعد ليلي مع "إيميلي" فتاة غرفة الاستقبال لبائع أشجار الميلاد..

لم يلبثا أن تبادلا تلك الابتسامات الصفراء الخبيثة وتقتحم المكان سيارة أخرى رباعية الدفع محدثة ضّجة.. كانت تشبه تلك السيارات التي تستعمل في

التهريب أو لأحد كتائب المافيا.. والغريب في الأمر أنها كانت فارغة على عكس روتين المتمرّدين الذين لا يتحرّكون إلّا ضمن قطعان كبيرة؛ حتى كلمة قطيع غالبا ما تنسب للحيوانات وهذا ما يزيد التوضيح بأن القطيع من صفات الخرفان وتنسب لهم أكثر من أي صنف آخر.. والأغرب أن صاحب السيارة كان "البابا" نفسه، ها هو ذا يظهر مرة أخرى في أماكن لا شأن له بها.. بزي غير زيه الرسمي في الكنيسة أو أي زي رسمي آخر.. هو نفس الصديق القديم لـ "كلاوديو وأليغري" قبل سنين طويلة من اليوم.. نزل ببخترة من هذه الكتلة الحديدية الضخمة وراح يمشي ممثلا ابتسامة تشوبها أسئلة طاحنة لمسامعهم ولكنه أراد أن يظهر متماسكا قليلا.. مر السلام والاشتياق الكاذب والروتيني بينهم في دقائق سريعة جدا.. -من أكثر الأمور التي أذمها هي تلك العبارات السخيفة فوق تحية السلام.. لا أنت تريد أن تعرف هل حقا أنا بخير ولا أنا أريد أن أجيبك حقا..!- تجرع "البابا" بؤس الموقف وبدأ في طرح سيلا من الأسئلة بشكل عشوائي وكأنه لا يبالي ولكنه يريد التفاصيل بشدة:

-ها، أخبراني.. ما الذي أتى بكما إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل وفي هذا المكان المنعزل بالذات؟

تكلم هذا الثنائي "كلاوديو وأليغري" بسرعة في نفس اللحظة بكذب تضارب في الجو مقتحما آذان "البابا" بصورة غير مفهومة.. ثم سكبا عليه سوائل من الضّحك المسموم وكأن الأمر مضحكا حقا..

ساد الهدوء برهة طفيفة من الوقت وبدأ "أليغري" في الكلام محافظا على كذبته الأولى أي أنه تمّت دعوته من قبل صديق قديم هنا.. ومن هنا بقي السيد "كلاوديو" في كلامه أيضا بأنه كان يتنزه في الجوار وأراد فقط الاحتماء في هذا الكوخ من الثلوج..

كان التوتّر أشدّ قرصا من البرد في هذه اللحظات،

أردف "البابا" قائلا:

-آه! جيّد.. يا لمحاسن الصّدف! هه.. أما أنا فقد جئت لأجل صفقة سلاح غير قانونية كما تعلمان.. فهذه الغابة محميتي الخاصة وتابعة لإقليمي...

ضحك "أليغري" موجها كلامه للبابا:

ما زلت مشاكسا كما عرفتك دوما هه.. بالمناسبة عندي لك نص عقائدي أريد منك تحريفه لأنه يمس بالأمن السياسي في السجن؛ أو المبنى الكبير.. وأنا هنا في عطلة وتركته تحت لواء نوابي بينما تركت عائلتي في باناما يتنزهون هناك...

بعيدا عن كل هذا؛ الكذب صار غدة لعابية باللسان في هذا الزمان.. "البابا" هو الأخرى لم يأتِ لأجل صفقة أسلحة أو شيء من هذا القبيل.. بل لموعد هو الآخر مع حبيبة صديقه "رفاييل" والتي التقاها في الحفلة وقاما بالرّقص معا بشغف وكأنّهما عشيقين ما قبل العشق يتسابقان على حلبة من جمر! وتم عقد الموعد بين نغمات الموسيقى هناك في منزله.. "ماري بارمسترونغ"..

هل يعقل أن تكون كل هذه الأمور صدفة؟ ثلاثة رجال وثلاث نساء في موعد مشترك في نفس الزمان والمكان دون أيّة صلة بينهم!!

في هذه اللحظات وكلام تافه يخرج من بين تلك الأفواه الكاذبة تحدث جلبة في الجوار، يفتح الباب من المنزل بجانبه بسرعة ويخرج من ذرفته قضيب حديدي لبندقية شديدة.. تلته أصوات صراخ تحاول إرعابهم لرجل يبدو أنه في منتصف العشرينيات.. لحظة! يا إلٰهي.. هل يعقل أن يكون "رافاييل" أيضا متواجد هنا؟ نعم إنه هو بالذات.. ما الذي يفعله داخل المنزل؟ أصبحت الصدف المتوالية مرعبة جدا.. توسعت أحداق الأعين وهي تشاهد "رافاييل" الذي تكلم بعدها:

أنتم!! أرعبتموني.. أنا مسرور بقدومكم جدا إنها مفاجأة رائعة..

اتّضح أن هذا المنزل يعود للسيد "رافاييل".. وزاد الأمر غرابة أكثر عندما لم يسألهم عن مناسبة قدومهم فرأس السنة للاحتفال وليس للأسئلة الغبية.. تبادلوا أطراف الحديث وشربوا حد الثمالة.. مرت نصف ساعة أو أكثر قليلا

وهذا ما زاد غيض "رافاييل" حيث كان ينتظر حبيبته لقضاء سهرة هنا في هذا المكان بعيدا عن فوضى المدينة.. ويبدو أن هذه الكتل المترامية من السُّكر ستبيت هنا..!

هناك من يؤمن بالقدر وهناك من يؤمن بالصّدف..!

هذا يؤمن بقدر تحتويه الكثير من الصدف العشوائية، وذاك يؤمن بصدفة تحركها أقدار تلقائية بحركة منتظمة..!! هذا مِن ذاك وبه، وذاك مِن هذا وبه..!

"إيميلي" العاملة في غرفة الاستقبال من محل بائع أشجار الميلاد التي التقاها "أليغري" هناك بالصدفة وتعارفا وكان هذا الموعد تمهيدا لعلاقة بينهما...

"فيرونيكا ألبا" صاحبة السيّارة الصفراء التي وجدها "كلاوديو" بالصدفة في الطريق السريع بسيارتها المعطوبة وقام بمنحها القليل من البنزين وكانت هاذه السّهرة الجميلة كما كان يفترض لها أن تكون؛ لرد الجميل..!

"ماري بارمسترونغ" حبيبة "رافاييل" الجديدة والتي عقدت هذا الموعد احتفالا بارتباطهما.. وكذلك دعوة "ماري" لـ"البابا" في هذا المكان لسهرة خيالية هو الأخر..!

ثلاث نساء لا تربط بينهن أيّة علاقة.. وأربع رجال كانوا أصدقاء منذ زمن بعيد..

هل الأمر صدفة! أم أنه قضاء وقدر..؟ أتراه متعمدا؟ محبوك بعناية تامة!! لكن لماذا؟

ما الذي سيحدث بعد هذا؟ وأين هن أولئك النسوة الآن؟ من الأكيد أن هناك سرّا ما...!

الفصل السّادس:

المهمّة الثّالثة

إن الحياة مثل مربية الأطفال في أغلب الأحيان، يخيّل لك بأنها تمتلك حنيّة والدتك ولكنها ستصفعك في كل مرة لن تكون فيها مطيعا.. هي تريد منك أن تكون مقيّدا، إما أن تتحمّل الصفعات وتتمرّد لأجل حريتك والخلاص منها.. أو أن تبقى الفتى الوضيع؛ كلاهما..

محمد بن الريم

أين أنا! هل هذا هو الجحيم؟ أما زلت حيّا..؟ أظن أنهم قد أطاحوا بي لأسقط في سجنهم اللّعين من جديد، فهذا السواد الذي يحيط بوجهي جراء لثام ما يذكرني جيدا بأيام السّجن وعذابه.. كيف حدث هذا؟ وكيف أتيت إلى هنا؟ أسئلة كثيرة لا أجوبة لها.. لحظة! أنا أستطيع تحريك يدي بسهولة؛ إنّي بلا قَيد، كذلك أرجلي ليست بها أغلال.. هدوء يكتسح المكان..! صوت تضارب الأمواج..! لم أسمع هذا الصوت من قبل في زنزانتي أيام الجحيم.. تم تحويلي إلى غرفة أشدّ قسوة ربما..!! لم أستطع كتم الأسئلة الفضولية التي تزاحم تفكيري من كل مكان.. أردت تحريك أطرافي قليلا لكني ترددت خوفا ممّا سأجد بجانبي أو ما سألقاه من عذاب جراء ذلك.. وهذه السّكينة التي تحيط بي تخبرني بأن المكان خال من أي ذوات أرواح، عادت رباطة جأشي واستجمعت قواي وقمت بتحريك كفّي إلى مؤخرة رأسي أمسح به على ذلك اللثام الأسود، بدأ دوار رهيب ينذرني بأنه سيغمى عليّ في أي لحظة.. قمت بحذر أحرّك يديّ إلى مقدّمة رأسي ممسكا بذلك السواد لأنزعه مِن عليَّ علّ ّني أرى النور خلف هذا واجد كل الأجوبة التي تربكني.. نزعته أخيرا

وصرت أفرك عينيّ بحركات متسارعة قليلا لأنزع كسل الرؤية من عليها بعد هذا النوم العميق أو التخدير.. سقف مصنوع من طوائل الخيزران بالكاد يمرر بصيص نور خافت يدل على أن هذه الغرفة مستقلة عن أي مبنى، ومساحته توحي بأن الغرفة صغيرة بالكاد تحمل شخصين أو ثلاثة على الأكثر.. أين أنا؟ آخر مشهد أتذكّره أني كنت في ذلك المستشفى اللعين بلباس الطبيب أقابل سريرا ما في غرفة خاوية مقبل على ارتكاب جرم في حق شيخ بريء.. وهذا ما كنت مجبرا عليه لأنقذ عائلتي ولأكمل المهمة أيضا.. انتصبت برأسي وكتفيّ قليلا إلى الأعلى لأشاهد الغرفة كلها وفجأة أحسست بوخزة في كتفي.. كان هناك قليل من الضماد لا أدري ما قصته وما هي إصابتي أيضا.. وفي غفلة من كلّ هذا أتحسّس أناملا لشخص ما تطأ بكلتا الأيدي الجزء الأيسر والأيمن من عنقي وأعلى كتفي بالتحديد.. ملمسه لم يكن قاسيا وكأنها أنامل أنثوية ناعمة.. لم يخب تكهّني حيث انطلق صوت من الخلف فجأة قائلا:

تمهل! لا تتحرك حتى ينتهي مفعول الحقنة..

كانت بنبرة قاسية ممزوجة بحنيّة ومألوفة جدا ثم أردفت بضحكة وهي تتحرك متجهة أمامي:

هه أرى بأنك تماديت في النوم عزيزي.. استرخي قليلا في مكانك ولا تحاول التحرك كثيرا.

لم تكمل كلامها حتى وجدتها تقابلني بنفس جمالها ومفاتنها.. وكأنها بهذا اللباس تعيش في مكان ذا شمس دائمة بعيد عن أي برد عابر؛ في شاطئ ما..

-أنتِ! أين كنت كل هذه المدة؟ آه عذرا..! هل أنتِ بخير؟

كانت كلماتي متقطعة وبها ذبذبة خفيفة وبُحّة بسبب الدوار الذي يصيبني منذ أن فتحت عيني في هذا الصباح أو المساء؛ لست أدري...!

لا تقلق، أنا بخير.. دعني أحضر لك بعض الطعام حتى تستعيد وعيك تماما وأسرد عليك كل ما جرى..

لن أخفي إحساسي بانقباض بسيط في الصدر وأنا أشاهدها أمامي تتحرك بهذه العفوية وكل هذا الجمال والإثارة تعتليها.. وهذا اللباس الفاتن الذي يبرز تفاصيلها المغرية زاد ارتباكي.. لم تمضِ أكثر من دقيقتين حتى عادت من جديد تحت دوي الرعد والسحب المباغتة التي بدأت بإطلاق غيثها.. دلفت الغرفة بروحها المرحة وبساطتها وضحكة تزيد من جمالها ومياه المطر على ثيابها الملتصقة بها تزيدها رقة وإثارة.. لن أخفي عنكم أيضا مدى إعجابي بها منذ أوّل لقاء بيننا..

ارتمت بجانبي بكامل جسمها وسحرها وبدأت تطلق لعناتها بأوّل الطلاسم عبر تحريك يدها ببطء حول خدي منتهية بآخر أصابعها على شفتيّ بحركة تزيد من رعشة جسدي.. كانت تقابلني وبريق في عينيها يتلو "أن حيّ على الحب" كنت محتارا فيما سأفعل؛ أعليّ تلبية النداء بقبلة مباغتة أم بكلام معسول تافه..! نسيت آلام السجن وقذارة المهمات.. وانسجمت مع شفاهنا التي أصبحت تتداعب متراقصة منتشية، وتهت في تفاصيل جسدها المرتمي فوق جسدي العليل هذا، وفي كل ملمس بشرة أتنعّم به أشعر بنبض الحياة يدبّ

فيّ من جديد.. استسلمت عضلاتها الطرية لي وهي في حضني وغرقنا في عناق شاعري جميل...

***

هل ما زلت تشعر بالدّوار؟

-آه! هل أنت مستيقظة؟ خلتك نائمة منذ مدة!

لم أستطع النّوم؛ ستسرقني الغفوة ولن أستمتع حينها بهذا الحضن الرائع هه، هل ارتحت قليلا من الألم؟

-للحضن قدسية رائعة لا يدركها الكثير...

قلتها في ابتهاج ثم أكملت:

-نعم، تجاوزت المرحلة الصعبة منه.. ولكن كيف أتيت إلى هنا؟ وكيف خرجتُ من المستشفى بعد أن كنت مجبرا على مهمة قتل شيخ ما هناك؟ وأين كنتِ

أنتِ في هذه المدة؟ أخبرتني بأنّك ستتكفّلين بكلّ الأمور..! ها! أخبريني بكلّ التفاصيل..

لم أنس قضيتنا، بل كنت غائبة من أجلها وستعرف الكثير فيما بعد.. أما بخصوص قدومك إلى هنا.. كنتُ أتتبعك من بعيد وراقبت كل تحركاتك في المستشفى وتلك العناصر الثلاثة التي كنت مجبرا على القيام بها.. كنت متنكرة بزي ممرضة هناك.. وكنت قد نسيت أمر الحقنة التي توجد في المخزن؛ الحقنة الكفيلة بطرح أي شخص أرضا مغشيا عليه في الحين؛ اصطدمت بك حينها في أحد الأروقة صدفة وأنا مسرعة إلى الأسفل حتّى أحضرها.. دخلت عليك في آخر لحظة قبل أن تقوم بأيّ أمر آخر لصالحهم وغرست هذه الحقنة في كتفك وأظن أنك تتذكر الأمر؛ فأثر الحقنة أسفل هذا الضماد.. وسرى مفعولها في كامل جسمك فورا؛ الحقنة لها مفعول سريع الانتقال في أي جزء تقوم بوخزه.. هذا ما جرى.. وبعض التفاصيل التافهة الأخرى كرشوتي لبعض العمال -كما هو رائج في كل مكان- لمساعدتي.. حملوك معي أمام الجميع إلى سيارة الإسعاف، وفي السّاحة تغيّرت الوجهة من سيارة الإسعاف إلى سيّارتي الخاصّة والتي

منحوها لي في العمل مثل كل موظف ليقوم بمهامّهم.. سأخبرك لاحقا عن ماهية هذا العمل... المهم أني أتيت بك بواسطتها إلى هنا...

-ولكن ماذا بشأن "أليغري، البابا وكلاوديو"؟ نحن في خطر.. سيعلمون بأمرنا إن لم نجد حلاّ في أسرع وقت..

أخبرتك بأنه عليك أن تثق بي وفقط.. دعنا نقوم ببعض الأعمال وستفهم الكثير منها.. ما زالت الأمور في صالحنا، لا تقلق.. هيا اتبعني..

-بربك، هل هذا وقت التصوير! إن الأوضاع متأزمة وليس هنالك متسع لهذا الـ...

قاطعتني فجأة ونظرة ثقة تلوح من عينيها.. جهّزت المكان وكأنّها ستقيم فيلما قصيرا هنا، اختارت زاوية جيدة وأضافت للمكان لمسة جميلة تشبهها..

هل تريد معرفة سرّ كل هذا؟

أومأت برأسي قليلا مشيرا لها بالإيجاب "نعم" وكلّي حيرة وشوق لفهم ما يجري.. تقدّمت نحوي وأمسكت كفّي، قادتني إلى صخرة بالشاطئ المقابل للبيت وأخذت تسرد كل التفاصيل بدقة.. عن سبب تجهيز الغرفة للتصوير، عن "كلاوديو، أليغري والبابا" وأين وصلت بخطتها..! وفي كلّ كلمة كنت أفتح فاهي مدهوشا من حنكتها وذكائها.. إن النساء رقيقات جدّا، ولكن كيدهن عظيم جدا أيضا إن تطلّب الأمر.. مرّت ساعات أودت بالوقت إلى أعتاب الغروب، وراحت الشّمس تلوح من بعيد مختفية في الجانب الآخر..

إذًا بما أننا قد فهمنا كل شيء فلندخل الغرفة ونكمل ما تبقّى من الخطة.. فالسّاعة المنتظرة قد دقّ ّت، والحريّة ما من حل أمامنا غير نيلها عاجلا غير آجلٍ في عصر الظّلام هذا؛ ساعة سيكشف فيها كل مستور، ونعود طلقاء من جديد..

تتبعتها إلى ذلك الكوخ الخيزراني هناك، دخلنا وكانت الديكور قد تغيّر قليلا عمّا شاهدته فور استيقاظي.. ستار أسود، طاولة في الوسط وأجهزة تصوير

لنبدأ في تسجيل بعض الأحداث التي يكون لها دخل في تغيّر القضية جذريّا.. ولكن الأمر الممتع حقا هو أنّي مولع بالمفاجآت.. وهناك مفاجأة سارّة بالغت "دانا" كثيرا في وصفها والتي ستكون بعد قليل.. يا ترى ماذا ستكون! أنا متشوق جدّا لها...

مرّت قرابة النّصف الساعة من التصوير، انتهى الأمر.. خرجنا برهة من الوقت للخارج للاستمتاع بهذا الجوّ الجميل! وبعد دردشة طويلة وكلام جميل عميق لم أخفي فيه إعجابي بل حتى أسرعت لنطق كلمة "أحبك" قبلي وهذا ما وفرّ علي الكثير من الجهد النّفسي وكانت كأنّها رصاصة رحمة أفرجت بها عليّ حينما صوّبتها ناحيتي فلم تخطئ التّسديد..

أن تكون حبيبتك ذكيّة، مثقّفة.. أنيقة وتحبّ السفر بالإضافة إلى شغفها بالأدب والفن كلّه كولعها بالموسيقى والمسرح ومجنونة قليلا... أمر رائع حقا!

هذا ما اكتشفناه حين وجدنا الكثير من الأمور المشتركة في نقاش طويل متفرّع شاعري جميل علّني أنسى ما مررت به عمرا كاملا..

مرّت دقيقة ساكنة والصّمت يطرح ديو غنائي مع صوت تضارب الموج في البحر أمامنا وصفير الرّيح المتناسق...

استدارت وعلى وجهها ابتسامة تريد إخفاءها وقالت:

هل ننتقل إلى المفاجأة الآن؟

-نعم أكيد، فكلي شوق لمعرفتها.. ما هي؟ (أجبتها بلهفة)

أغمض عينيك وعدني ألّا تفتحها إلّا عند ما أقول لك افعل...

-حاااضر، وعد.. لن أفتحها إلّا حينما تسمحين بذلك..

أغمضت عينيّ بكفي ورحت متأملا غارقا في صوت المياه منتظرا عودتها بشغف، ولكن الغريب في الأمر أنها لم تأتِ لوحدها فوقع الخطوات لا يدل على شخص واحد وكذلك تلك التمتمات لا يمكن أن تكون من فيه واحد.. توقّفوا بجانبي، أمامي بالتحديد! وأنا محتار في داخلي وألف سؤال وسؤال يتآكلني، ومع هذا لم أفتح عينيّ وبقيت متنظرا إشارتها وكلّي شوق وحيرة.. يا

ترى ماذا تخبّئ لي هذه المجنونة! أتمنّى أن يكون أمرا كفيلا بغرس السّعادة بروحي ولأنسى ما فات ولو قليلا، فقد اشتقت لومضة نور تنبعث في هذا الظّلام الحالك على أيّامي حتّى في وقت الظّهيرة لما يحتويه من شرور كثيرة.. للمرة الثّانية تعارض فكرة فتحي لعيني بعد ما سألتها! إنها تتقن فنّ التشويق باحترافية، أتمنّى أن يكون الأمر يستحق ذلك مع أني أثق في جنونها الطائش هذا...

ها رامو! والآن هل أنت مستعد لاستقبال مفاجأتك!.. همم... هه!

-همم ماذا! كفاك همهمة أيتها الغبيّة وأخبريني...

تنهّد جيدا، تنفّس بعمق.. خذ أكبر قدر من الأُكسوجين تستطيعه...

سكتت قليلا ثم أكملت:

أمستعدّ لرؤية والدتك؟

أحسست بوعكة أصابتني في قلبي على اثر ذلك، ولم أقوَ على فتح عينيَّ بل أغمضتهما بشدة حتّى أوجعتاني وقلت:

أنت تمزحين صح!

لا يا رامو، والدتك واقفة أمامك الآن.. هي تريد عناقك بشدّة ولم أدعها تقم بذلك إلا إذا قمت أنت به.. وطلبت منها أن تكفكف دمعها المتهاطل! اسكتي أمّاه أرجوك! دعينا نخلد هذه اللحظة عندما يراك لأول مرة ويسمع صوتك بعدها...

لا يمكن! أخبريني بأنك تمزحي فعينيّ لا تشاءان الرؤية، لا أستطيع فتحهما..

شعرت وكأن بداخلي دوّامة لولبية سريعة جدا، عقلي مشتّت ويسرح في متاهة بعيدة ولا أظن بأنه سيعود قريبا.. ولكنّه رمى لي من هناك ببعض الصّور بدقة عالية الوضوح لعائلتي التي عادت مع ذاكرتي الآن.. لم أستطع تحمل الأمر فجأة..! صارت الصور تترامى في كلّ مكان من مخيّلتي، أحداث

كثيرة ها هي تتكرّر الآن وكأنّي أعيشها فعلا حتى التّافهة منها! ورغم أني مغمض العينين وهذا الظلام الذي يغشاني خلف مقلة العين إلّا أنّي أستشعر بعض النّور وتذبذبات في الرّؤية..! هل أقوم بذلك! هل أستقيم فجأة وأفتح عيني وأشاهدها حقا؟ أخشى أن تختفي فور فصل أهداب عينيّ عن بعضهما! ثم كيف ومتى وغيرها من أدوات السؤال تبحث عن إجابة! أحسست بالغثيان ودوار شديد؛ أشد من كل ما سبق عليّ! خاصة عندما لامست بعض الأنامل خدي الأيمن متحسّسة إياه.. غير ممكن! هل أنا في حلم؟ أخبريني بأن هذا مجرد حلم يا دانا قبل أن يغمى عليّ...

ساعدتني في النهوض واستسلمت لها.. قمت منتصبا ولم أفكر أكثر من هذا ورميت كل التوقّعات جانبا وفتحت عيني.. يا إلهي! هل يعقل ذلك؟ فركت عيني لأكثر من مرة محاولا استيعاب الأمر.. نعم، نعم هي.. لا شكّ في أنها هي حقّا فقلبي وعقلي وذاتي الباطنية يخبروني بأنّها هي..! أصابتني رعشة في كل جسمي وسرت بي واهتزّ جسدانا على إثر عناق أعمق من العمق في حد ذاته.. كنّا نقترب لدرجة التمازج، خبّأت رأسي في عنقها وبدأت تداعب شعري

غير مصدّقة هي الأخرى بأنّي في حضنها الآن، ودموع دافئة صارت تتصبب على كتفي مدّتني بالكثير من الحب والاشتياق والأمومة التي فقدتها منذ زمن لا أدري طوله..

لم أستطع مفارقة حضنها ولو لثانية واحدة ولكن فعلت ذلك مرّة واثنتين وثلاثة لأتأكّد من ملامحها وأستوعب الذي أمامي، أمسكت بكتفيها وأدخلتها إلى غياهب حضني من جديد لما ملكه من عمق في المشاعر.. كان شعورا رائعا حقا.. مرّت سويعات ونحن بالقرب من بعض مرة أتحسس كفّها بفمي فأقبّله ومرّة وجهها الملائكي.. أمّا هي فتقبلني بقوّة؛ تلثم خدي ورأسي وكتفي بحرارة وتداعب أناملي ببطء ودموعها سيل لا يتوقّف للحظة استراحة..! قد كان لي شرف مسح دموعها في كل مرّة أيضا وملامسة وجهها البدر دون انقطاع..

جلسنا في نفس المكان من الشاطئ بالقرب من الكوخ، وأنا ملقي برأسي على فخذها شاعرا بأمان الكون كله وهي تمرّغ كفها الناعم على شعري الكثيف

والذي عاد رطبا كما كان في سنوات الطفولة.. وما إن استطعت هضم الأمر في دخلي وتصدقيه بعد مرور أربع ساعات.. بدأت الأسئلة تتدحرج من شفاهي لكلّ منهما، كيف التقيتما؟ متى؟ كيف استطعتم الهرب من جماعة أليغري! وهل أختي بخير..؟ أين باقي العائلة... ؟

عليك أن تهدأ يا رامو، كل شيء سيكون بخير بعد اليوم.. وسأجيبك على كل أسئلتك الآن! كنتُ هناك، قادمة لك عندما أتاك رسول من السجن لتقوم بتلك المهام في المستشفى، تراجعت وراقبته من بعيد وهو معك، قمت بعدها بتتبعكم حتى مدخل البوابة.. وعندما أعطاك تلك الأقصوصة وذهب من أمامك بسيارته تاركا إيّاك خلفه لتنفّذ ما أنت مأمور به، رحت أقتفي أثره هو الآخر.. ولحسن الحظّ كانت وجهته إلى منزل عائلتك، وصل للبيت.. أخذ يطرق الباب مرات عدة إلى أن سمع أصواتا من الداخل مفادها أن شخصا ما قادم له.. ابتعد خطوتين إلى الخلف!

أخرج من جيبه الخلفي رذاذ ما، جهّز نفسه جيدا.. كانت أختك من قدم لرؤية الطّارق فقام برش الرذاذ عليها حتى فقدت الوعي على الفور دون صوت يثير الشكّ في الأنحاء.. تفقد الجوار بنظرات ثاقبة وكأن شيئا لم يحدث، وحين تأكد أن الرصيف فارغ تماما من أيّ مخلوق والطريق آمن قام بحملها بسرعة ووضعها داخل السيارة، هناك قد تمكنت أنا من معرفة عنوان المنزل وأكملت تعقّبه إلى وجهته الجديدة مع أختك.. كانت في أحد المباني المهجورة في طرف المدينة والتي لا يدخلها أحد بتاتا، قاموا بتعذيبها قليلا...

قاطعتها قائلا: هل هي بخير الآن! وأين هي؟ و...

دعني أكمل، بعد ما أذاقوه لها من عذاب تركوها في مكانها؛ لم يكن لهم غرض أصلا في أخذها رهينة إلى السجن أو أيّ مكان آخر! ففي الأخير إن هي ماتت هنا سيأتون لأخذ ما تبقى من العائلة.. وإن وجدوها حية فذلك في مصلحتهم وليكملوا عليها أفعالهم الشّيطانية، بعد أن قام بإحكام ربطها مطمئنا متأكدّا بأنّه لن يأتي أحد إلى هنا خاصة في هذا الجوّ البارد.. انتظرت قليلا من

الوقت ريثما يبتعد أكثر ودخلت لها، فتحت رباطها عنها وهربنا بسرعة لمنزل عائلتك.. قصصت على مسامعهم القصة باختصار أما باقي التفاصيل فأخبرتهم بها في الطريق.. أوّل وجهة كانت نحو المشفى معالجة أختك.. هناك مستشفى بعيدة لا أظن بأنهم سيعلمون بأنّها فيها ولن يأتيهم شكٌّ في ذلك أيضا.. والوجهة الأخرى كانت لآخذ ما تبقّى من العائلة إلى مكان عملي، عمل قمت بالانخراط فيه، ليس مهم ستعرفه عنه الكثير لاحقا..

أما أنا ووالدتك فاخترنا لك هذه المفاجأة، وبعد أن تنجح خطة ما قمنا بتصويره قبل قليل! سنذهب لمفاجأة باقي أفراد العائلة...

ساد الصّمت برهة من الوقت وأنا أفكّر في حكايتها حتى تهت بعيدا في تفاصيل الأحداث، لم أجد الكلام الكافي لأتحدث به لكنّي أخيرا استجمعت نفسي وقلت:

-عزيزتي! لم أجد ما أقوله لك.. أنا مدين لك بكلّ شيء.. بل بروحي كلّها جرّاء ما فعلته.. كنتِ سندا حقيقيا لي! أنا... أنا أحبك..

هذا كلّ ما يسعني قوله الآن وبرغم قوّتي لقد لامست المكان الهشّ والثغرة الضّعيفة فيّ..

-تبسمت والدتي بابتسامة سيتخيلها الجميع عندما قلت لها "أحبّك" ورمت نظرات بيني وبين دانا بشكل متواصل وفي عينيها بريق يقول الكثير!

ثم قالت: صغيري! هل تعلم من تكون دانا ؟

وقبل أن أبدأ في الشّرح والكلام أكملت بسرعة:

-هي زوجة ابني الوحيد إن وافقا! وغصبا عنهما أصلا.. ههه ورمتنا بابتسامة متحدّية

ضحكت ضحكة خفيفة متلعثما دون أن أقول كلمة أو جملة مفيدة، بينما ارتمت دانا في حضن والدتي معانقة إيّاها قائلة:

شكرا لإنجابك رامو، أنت فعلا عظيمة لولادة هذا العظيم...

-ماذا الآن! هل تصرّان على جعلي أشعر بالحرج أم ماذا؟ هه

برغم الصّلابة التي كانت تظهر عليّ دوما إلّا أنّي أمام والدتي ذاك الطّفل الصّغير الذي لا ولن يكبر أبدا..

أخفيت عنهم أمرا بالغ الأهمية، أتمنى أن لا تلاحظانه.. وهو حيرتي الآن في حياة عائلتي ودانا منهم! من جماعة أليغري وغيرهم.. لأني عقدت العزم على عدم التخلي عنهم من جديد! وهذا نقطة ضعف لي ولكن لن أدعهم يلعبون على وتري الحساس ويراقصونني على أنغامي..! هذا إن لم تنجح الخطة، امّا في حال تمكننا من انجاز ما بدأت فيه دانا قريبا! سيكون ذلك لصالحنا وللأبد...

من أقذر الأفعال التي يرتكبها عدوك هو حشر عائلتك في وسط كلّ شيء حتّى يلوي يدك باستعمالها..!

لم يتبقّ الكثير حتّى ينتهي كل شيء.. أو لأنتهي مكانه! ابتعدت عن دانا ووالدتي قليلا، تقدّمت ناح المياه أكثر وصرت أتأمل حركتها وهي تبتلع أرجلي

وتفر بعيدا لتعيد الكرة من جديد لتأخذني معها ما بين مدّ وجزر لذكريات واحتمالات كثيرة.. وبين الفينة والأخرى أحملق فيهما وهمت تدردشان في موضوع ما، أسعدني ذلك الودّ بينهما أيّما سعادة.. تجلسان بكلّ راحة ولا تعلمان كم أحمل من الحيرة والقلق عليهما ممّن يراقبونني أو من الوحوش التي تريد التهامي.. لا ذنب لهما في ذلك.. ومع ذلك سأكرس حياتي لحمايتهما وعائلتي، لن ادع مكروها يصيبهم مهما كلّف الثمن! ثم إنه لم يبق الكثير على ليلة رأس السنة، اللّيلة التي ستكون الفيصل في كل هذا إن نجح الأمر.. وإن حدث أي شيء صغير مخالف للتوقعات ولم أنجح فسيكون الهلاك حتمي لنا جميعا وستزيد مهمتي صعوبة!

كثيرا ما استفسرت عن هذا البحر أمامي، كم بلعت من جثّة في جوفك وكم أخذت قربانا من الشباب! وما الدّاعي لجعلهم يقتحمون عمق المياه ويركبونها ملبّين رحلة نادت بها أطيافا واهمة لحلم بعيد ولا أحد يشكّ في خطورتها وأنّ فيها النّهاية إمر حتميّ ومع ذلك لا يهابون خوض غمارها.. هل هم حقا شباب طائش كما يقال عنهم! أم هناك أسباب حقيقية تدفع بالمرء للتغرّب هكذا عن

عائلته وأصدقائه والوسط الذي ولد وكبر فيه؟ فلعجيب أن ترى شابّا في عمر الزهور يختار طريقا صعبة ووعرة جدا ليجتاز الضّفة الأخرى مع علمه بالإحصاء المرعب الذي تناول عدد الضحايا! ما الأمر الذي جعله يتحدّى هذا الكمّ الهائل من الوفيات في عمق الأزرق الموحش! ثم ما الذي جعل هذا العدد أيضا يختار نفس الطّريق! هل بإمكانك إخباري أيها البحر أم أن مهمتك الوحيدة هي أكل ما تبقى ممّن هم مثلي؟ من المسؤول عنهم؟ على عاتق من تقع تلك الأرواح؟ عاتقك مثلا يا بحر؟ ومن المسؤول أيضا عن مغترب جائع! عن مغترب لا يجد ملبسا فقد بلت آخر قطعة قماش كانت على جلده...! وعن مغترب يرجف بردا الآن! علامات استفهام وتعجّب كثيرة تطرح نفسها بإصرار عليك يا بحر فأجب...!

قاطع حبل أفكاري صوت دانا بالقرب مني يهمس لي بمرح:

ما الذي يشغل فتانا!

استطردت وعدت لأرض الواقع، استدرت نحوها بابتسامة قائلا:

-لا، لا شيء مهم..

واستأنفت كلامي موجّها لها سؤالي: هل أنت واثقة ممّا نحن مقبلان عليه! هل تظنين بأن الخطة ستنجح؟

إي نعم.. بالتأكيد، وإن لم تنجح أو لم أحيا بعدها فتذكر أني أحبك بصدق عزيزي..

-وأنا أيضا عزيزتي أحبّك.. ستنجح، ستنجح الخطّة..

الفصل السّابع:

الانتقام، كشف السر

حين يكون الغضب سيّد الموقف يولد الرّجس من رحم الرّجز ليعزف أكابيلا تعفن سكون الليل بصخب.. مما يحفزك لارتكاب ما لا تحمد عقباه، أتلذذ بكل قطرة دماء متناثرة على وجهي التي حفرت الشهوة تقاسيمه، لا تغرنّك رقة يدي المنمّقة بطلاء الأظافر هذا... إياك أن تستهين بكيد أنثى أقسمت أن لا أحد يتلاعب بها.. أمسك سيجارتي التي باتت مؤنستي في الآونة الأخيرة واستنشق نيكوتينها لأزفره على شكل سحب كثيفة تكاد تمطر؛ فلتمطر علّها تغسل هاته الدماء التي تلوثني ولتكفّر ذنوبي التي ارتكبتها والتي سأرتكبها.. إني اتلذذ بالقتل حقا.. ياله من شعور مغري؛ أني أجثو بين سيادة رحمتها خاضعة لها أتوسلها.. وكل محاولاتي في طلب الصفح باءت بالفشل.. فقدت عذريتي؛ اغتصبتني الحياة بأقدارها، هي بجنودها وأنا وحيدة على الحلبة! لكمتني حتى اسقطتني صريعة أتخبط بين دوامات اللعنة المدنسة ببركات الشياطين..

كم هي عاهرة..!! تأملتني على المرآة التي كانت أمي حريصة على تنظيفها.. مهلا! انظر..! إني أستحق أن أترقى لرتبة تعلو لوسيفر بدرجات من أن يكون مجرد تلميذي.. وكل دقيقة تمر سأهمس فيها له من أجل الانتقام...

هديل بوعلاق

إن العالم قذر بشكل جميل..! قذارتك ستُولّى عليك بطريقة ما.. وهذه هي العدالة الربانية..! هل تظن بأن حياتك البائسة هذه بسبب ظلم الله! لا طبعا.. بل بسبب سويداء الخطايا التي تحتويك وتخضع لها بالممارسة.. إنها عائدات من عالم ذنوبك الكبير.

دخل الرجال بعد حديثهم في ساحة المنزل بعضا من الوقت.. كان منزلا مخرّبا قليلا، منزل مهجور منذ مدة ولم يقرر أحد الذهاب إليه ما عدا تلك المواعيد المختلفة والتي تثير الحيرة في النفوس بين هؤلاء الرجال الأربعة "كلاوديو، أليغري، البابا ورافاييل".. أخذوا يتأملون تلك الجدران المقشرة وشباك العناكب التي تزينها.. والذهول باد من على ملامحهم بسبب أثار بقع الدماء التي رأوها في بعض الزوايا والتي تكهنوا في ما بينهم بأنها تعود لبعض الصيد؛ غزلان أو غيرها.. ولكن من يدري! قد تكون لإنسان ما قد لقي مصرعه هنا أو قُتل قبل وقت قليل؛ فروائح الجثث العفنة تفوح في الجو بكثرة.. يمشون في رواق طويل يؤدي إلى الغرف في آخره، وبينما هم مستغرقون في مشي طويل سمعوا صوت زجاج يتحطم في الأعلى.. تقدم "رافاييل" قبلهم لأنه في

منزله الريفي الذي يعرف غرفه بدقة رغم أنه لم يزره منذ مدّة طويلة، ثم تبعه باقي الرجال.. شظايا بقرب النافذة! قد يكون هذا بفعل الرياح.. أو لقدم المكان هنا حيث أصبح أشبه بمقبرة منسيّة..

رواق آخر يثير الريبة بكل هذا الحطام عليه.. باب ثالث لم يفتح بعد وباب رابع تنطلق من خلفه صيحات كلاب مسعورة محتجزة أو قد ظلت الطريق إلى هنا.. الباب الخامس مفتوح وغرفته لائقة قليلا..

كان الرجال يجلسون في وسط الغرفة حول طاولة مستديرة يتكلمون عن السنين الماضية ويتذكرون بعض الأحداث الجميلة التي جمعتهم آن ذاك.. "كلاوديو" الذي كان يعلق آمالا هنا للقاء "فيرونيكا" ها هو يجلس موجها كرسيه نحو النافذة يستمتع بالثلوج متناسيا الأمر كله.. و"أليغري" الرجل المسلم والمكلف بالسجن "المبنى الكبير" بطريقة شرعية أو غير شرعية، لا أحد يدري..! هو الآخر يلعب بمنديل ورقي بين كفيه ينفس عن شحنة الغضب بعدما كان يريد لقاء حبيبته الجديدة "إيميلي" فتاة أشجار الميلاد.. أما

"البابا" أخذ يروى بطولاته وأمجاده وفي وجدانه لا يذكر سوى اسم "ماري بارمسترونغ" والتي دعته أيضا إلى هذا المكان.. نفس المكان هو بيت "رافاييل" الذي كان قد برمج هذه السهرة لحفلة خاصة مع حبيبته "ماري" لحظة..! ما كل هذه المتاهة؟ عبث قدر أم خبث بشر؟ أم أنها صدفة أخرى جمعت بينهما بشكل غريب وغامض..! لم يبقَ على ساعة الصفر إلا نصف ساعة وفي أنفسهم بصيص من الأمل وشمس من الحيرة.. لم تحضر فيرونيكا، لم تأتِ إيميلي ولا حتى ماري.. بينما هنا قد جاء كل الرجال.. لماذا نفس العنوان وهن نساء مختلفات عن بعضهن؟ ولماذا جمعت الصدفة بين هؤلاء الأصدقاء القدامى بالذات؟ وفي هذا المكان بالتحديد!! كلها أسرار يسعى أربعتهم لفك شيفرة لغزها في غياهب عقله المظلم.. تدخل صوت غريب في الجوار.. وكأنه خربشة إلكترونية لجهاز ما.. جهاز مبرمج ليشتغل في هذه اللحظات تحديدا.. كان الداتاشو في زاوية السقف موجه للجدار الفارغ هناك.. من فعل ذلك؟ وفجأة يسطع وميضه متوهجا في الحائط مشكل صورة امرأة عشرينية جميلة .. في غرفة خيزرانية صغيرة شبه مظلمة ونور خافت لا يسع إلا محيط المرأة في ذلك

المكتب الصغير.. طغى هدوء رهيب على المكان لبرهة من الزمن بين الرجال الأربعة أمام الداتاشو.. وتحولت وجوههم لملامح وكأنها لقطع من الزومبي.. الحيرة والذهول بشكل رهيب ظاهرة على ألسنتهم المتلعثمة.. نطقوا فجأة بصوت واحد وبأسماء مختلفة: "فيرونيكا، ماري، إيميلي..!!" قال "كلاوديو" باستغراب: إنها "فيورنيكا ألبا" التي حدثتكم عنها عندما صادفتها في الطريق السريع.. حملق فيه أليغري بطريقة غريبة تشوبها الصدمة.. ولكن كيف؟ بل هي صديقتي التي تعرفت عليها في محل بائع أشجار الميلاد إنها "إيميلي" لقد قرأت بطاقتها بعيني وكان هذا اسمها..!

هنا حدق "البابا ورافاييل" في بعضهما البعض وقال "رافاييل" ما هذه السخافة؟ هذه "ماري بارمسترونغ" صديقتي وأنا دعوتها إلى هنا الليلة لحفلة رأس السنة فأتيتم أنتم بدلها بشكل غريب..! زاد تحديق "البابا" فيه موجها له الحديث:

هل تقصد أنها حبيبتك؟

-نعم...

ثم أردف ولكنها حبيبتي أنا وقد دعتني لقضاء سهرة هنا.. ما هذا الهراء؟

صرخ "كلاوديو" في وجوهم.. لحظة!! إنها حبيبتي التي تعرفت عليها مؤخرا، ما الذي دهاكم؟

وزادت حدة "أليغري" عندما قال: بالله عليكم لم أعد أفهم حرفا..! هذه "إيميلي" تعمل بمحل بائع أشجار الميلاد، ما الذي تقولونه؟ غريب أمركم..! مضت دقائق قليلة والكلمات تتضارب فيما بينهم.. وفي غفلة من هذه الجلبة تتحدث صورة المرأة التي بالجدار المتوهج عبر أشعة الداتاشو...

-السلام عليكم..! بل لا سلام عليكم الآن..

ثم بنبرة مستهزئة بها ضحكة خفيفة شريرة تردف قائلة:

فيرونيكا ألبا!! إيميلي وماري بارمسترونغ هه!!.. هي شخص واحد.. غريب أليس كذلك؟ دانا.. اسمي دانا..

وفجأة أخرج أنا من على طرف الصورة لأجلس بجانبها من دون كلام وأكملت قائلة:

-كيف حدث كل هذا؟ كيف اجتمعتم هنا؟ ما الغرض؟ كل هذه الأسرار ستعرفونها الآن في هذا الكلام..

كان الرجال الأربعة تتحرك أعينهم هنا وهناك بشدة والحيرة تتآكل بأفكارهم في رؤوسهم ولم ولن يقوى أحد على المغادرة أو التوقف على الاستماع.. فالإنسان فضولي بشكل كبير زائد عن الحدّ، وهذا ما يجعله أحمقا في كثير الأحيان..

-هل نبدأ في كشف السر؟ هل أنتم مستعدون؟.. في البدء عليّ أن أسرد عليكم بعض التفاصيل الصغيرة.. سيد أليغري! هل عرفت هذا الشاب بجانبي..؟ مشيرة لي أنا ثم أكملت..

قطب وجهه بصدمة وراح يستمع كالأبله..

-من المؤكد ذلك.. هو رامو.. السجين رقم b18 من الغرف 213.. هل تظن أن جماعتك الآن يتتبعونه عبر جهاز الاستشعار الذي وضعته في ساعده بين فصي الكسر الذي كان مصابا به؟ لا طبعا.. لا وجود لأي جهاز الأن..

نظر "أليغري" لأصدقائه وقال:

-ما الذي تقوله هذه الحمقاء هنا..؟ أزيلوا هذا الجهاز اللعين...

قاطعه رافاييل، اخرس ودعنا نستمع لها فالأمر يزيد حيرتي حقا ودانا ما زالت تتكلم في الداتاشو المبرمج...

الأمر محبوك بعناية تامة.. هل تظن أنك بسياسة السجن الرديئة تلك ستدحض شبابا راقيا لا يمكنه الخروج بأفكاره ومبادئه ومذاهبه الفكرية الخاصة؟ لا طبعا.. وهذا دليل أمامك.. الكفاح ليس ثورة وبندقية.. بل أفكار وثقافة لصد الظلم.. وكفاح لتحقيق مطالب الذات وأحلامها.. ولن يدوم هذا

طبعا.. سنعمل على إخراج كل الشباب المكبوت في السجن ولو مع بقائهم داخله إلا أننا سنحولهم إلى أفكار وأرواح حيوية بناءة ليست عبيدا لكم..

آسف أيها البابا الكبير على فعل كل هذا.. (توسعت حدقتا عينه هو الآخر في ذهول) أعرف أنك إنسان ديني مصلح وملتزم برغم القذارة التي تمارسها على غرار عملك الشريف في بعض الأحيان.. ولكنك بين الفينة والأخرى تتبع سياسة السجن وتحرف بعض الأفكار العقائدية لأجل بعض المصالح أو تسكت عن بعضها.. وهذا خطأ كبير جدا سيدي.. لا أعلم هل تم تهديدك أو مدّك بمغريات الحياة لفعل ذلك! ولكنها خطيئة على كل حال.. لقد قرأت تصريحك في الكنيسة في الغرفة المظلمة الخاصة بسرد الذنوب لغفرانها ولحسن الحظ كتبها "رامو" عندما تم تكليفه من قبل "أليغري ورؤساء السجن" وأُمر بالاستماع لخطايا الناس أسبوعا كاملا.. وكنت تحضر في كل مرة...

نظرت إليّ مشيرة بأن أبدأ الكلام فانتصبت متوجها لها قائلا:

عليّ التنويه والإشارة لأمر واحد فقط، هو أن عائلتي الآن بمأمن عنكم.. الرشوة تستطيع فعل الكثير بعملائكم، هذا يكفي..! كنت سأقول الكثير ولكن يكفيني الجلوس بجانب حبيبتي هنا والاستمتاع بذكائها الخارق، أكملي عزيزتي هه

كان هذا وقبلة أثارت غضبهم أكثر من ذي قبل لأنها كانت حبيبة الجميع هناك في مخيلاتهم القذرة.. وراحت تكمل خطابها:

كلاوديو.. شكرا لك على إصلاح عطب السيارة.. أنت الآن تعرف "دانا" عاملتك التي تحبها أو تريد منها العمل معك ولم ترها إلا مرة واحدة وهي صغيرة والتي تعطشت للزواج منها فقط عندما تم الحديث لك عنها من الملاهي؛ عندما أجبروني على الرقص بينهم فوق الطاولات كالعاهرة الحمقاء، أو لأنهم قالوا لك أني ذكية كفاية لأن أقوم لك بأصعب المهمات دون الحاجة للعنف.. يا لك من غبي.!

تفاجأ كلاوديو وراح يصرخ في وجوههم:

-ما الذي يجري هنا؟ ليوضح لي أحدكم هذا الهراء أو حطموا ذاك الجهاز اللعين..

قاطعهم رافاييل مرة أخرى.. بربكم اصمتوا فالفيديو سينتهي على كل حال وسنفهم كل ما يحدث، دعونا نستمع فقط..

عندما يعمل الدين، السياسة والمال في صف واحد.. يمكن احتلال العالم..

لا مالك يا كلاوديو ولا دينك المحرف يأيها البابا ولا سياستك الحمقاء يا أليغري باقون..!

رافاييل! أنت تمثل المجتمع كلّه.. الوجه الآخر للمجتمع.. أو ربما الوجه الحقيقي.. أنت الوجه الآخر للحب عبر خياناتك الكثيرة، أنت الثورة عبر سطوك على العائلات الفقيرة، أنت الكذب والنفاق والخداع ايضا وكل ما هو سافل قد اجتمع فيك.. أنت عبء على المجتمع عزيزي..

هل ننتقل إلى الجزء الثاني؟ أين نريكم كيف تم نسج كل هذا بهذه الاحترافية التامة وصيدكم كفريسة سهلة..! حسنا...

قبل أيام من الآن.. كنت أتجول في شوارع المدينة حتى صادفني إعلان توظيف.. يبحثون عن عاملة بنفس الكفاءة التي أملكها وبنفس المواصفات بالتفصيل.. لم أجد عوائق في الانخراط معهم.. وفجأة أصبحت موظفة في غرفة الاستقبال من محل بائع أشجار الميلاد.. واخترت أن يكون لي اسم إيميلي على بطاقة العمل وتمت الموافقة عليه.. مرت أيام قليلة حتى جاء الزبون الذي انتظرته بشدة..

إنه أليغري.. الرجل المسلم وشقيق صاحب السجن الكبير.. على كلّ حال هو الأن برغم شهرته يستطيع المشي هكذا لأنه هنا بعيد عن بلده.. رحت أتفحص ملامحه في كل لحظة وهو في ذاك الطابور الطويل حتى لفتُّ انتباهه.. وأخذ هو الآخر يسترق النظر نحوي بين الفينة والأخرى.. تقدم الطابور وأنا ما أزال أرميه بنظرات مشتعلة كعاشقة شغوفة خجولة..

لم يبق في الطابور أحد ما عدا أليغري ورجل آخر.. أخبرتهما بأن الأشجار قد نفذت وبضع كلمات أسف أخرى.. مما أدى لاستيائهم واستدارتهم فجأة مع تمتمات شتم ولعنة.. بعد خطوتين أمسكت بكتف أليغري محاولة جذبه قليلا واستيقافه.. استدار لي وعلامات الحيرة تعلو وجهه.. توجهت له بالتحية الروتينية ومثلت دوري وكأنني أتأكد من هويته عبر سؤاله عن اسمه.. وقلت كاذبة بأن أحدهم قد حجز له شجرة من روائع المستودع.. زادت حيرته قليلا خاصة عندما تأسفت على نسياني لاسم الشخص المرسل.. تبادلنا -ونحن في الطريق- بضع الكلمات المعسولة وأوقعته في الشبكة مع أول تصريح لي بالإعجاب فراح يحكي لي عن نفسه وأنا أبتسم وكلي ضجر منه.. مرت دقائق بعد هذا واستأذنت بالمغادرة؛ لم يفتني أن أعطيه بطاقتي وآخذ بطاقته بعد طلبه لذلك لأتصل به في وقت لاحق.. نفس الوقت الذي دعوته فيه إلى هنا.. بعد كل هذا ذهبت حيث يتسكع السيد كلاوديو كعادته؛ في قاعة الرّهان يحاول الاستمتاع بجنيه للكثير من المال بطريقة رذيلة.. ليس مهما.. كنت قد ترقبته قبل هذا بأيام كثيرة حتى عرفت موعد قدومه وخروجه وكل شيء

بالضبط في هذا الكازينو.. اخترت الليلة الموعودة ودخلت بين الجميع.. في غفلة منهم توجهت إلى غرفة الخدم في زاوية القاعة.. وهناك كنت بكامل زينتي وأناقتي.. ومفاتني أيضا.. ما إن رأيت النادل متوجها لطاولة كلاوديو الذي طلب القليل من الشراب حتى ناديته وقمت بإغرائه إلى أن استسلم لي وأتى بصينيته ودخل معي.. تبادلنا الكثير من الأحضان والقبل واللمسات العاطفية.. وبين كل هذا كنت قد صببت رذاذا خلسة في الأكواب التي كان متوجها بها لكلاوديو وأصدقائه.. هه علمت بأن هذا النادل الشره لن يتوقف عن العبث معي، وفعلا نسي أمر العمل تماما وأراد مضاجعتي كالأبله.. أعطيته رقم هاتف مزيف على أمل اللقاء فقط لأجل أن أبعده عن جسدي وأجعله يذهب بالشراب الذي يحتوي على محلول يخرب العقل قليلا ويشتته لينسى بشكل مفاجئ.. وهنا ذهب النادل إلى كلاوديو الذي وبخه لتأخره ووجه له لكمة أفتكت بفكه الصغير الذي تركت فيه آثار قبلة هناك قبل هذا هه.. احتسى كلاوديو رشفات من الكأس وراقبته من بعيد كيف يحرك عينه في أرجاء الطاولة بسرعة محاولا استيعاب المذاق الدخيل.. وهنا عرفت أن الرذاذ قد بدأ

مفعوله.. ومن ثمّ نسي الأمر وتاه في لعبة البوكر مع جماعته.. مرت تلك السهرة بشكل روتيني وافترقت تلك الكتل الجسدية بين خاسر ورابح.. ما إن دخل كلاوديو غرفته ورمى بجسده المنهك فوق السرير حتى صرخ في الجو لاعنًا ذاكرته بقسوة.. نسي أمر الشامبانيا التي كان يفترض به الذهاب لشرائها بعد الانتهاء من اللعب والرهان؛ أخبرني بذلك شقيقه دانيال بكل عفوية.. حين كنت أحادثه عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي باسم جاسمين.. نسي كلاوديو أمر الشامبانيا تماما بسبب ذاك الرذاذ، في اللحظة التي غادر فيها الأبله القاعة للإتيان بالشراب اتجهت بسيارتي التي لم يكن بها إلا القليل من البنزين والذي لن يوصلني إلّا لمنعطف الطريق السريع أين توقفت هناك؛ المنعطف نفسه الذي يربط بين منزل كلاوديو ووسط المدينة.. كان الطريق خاويا من أي مخلوق بسبب الثلوج وكنت اعرف أن السيارة الوحيدة التي ستأتي هي سيارة كلاوديو مسرعة لشراء الشامبانيا من أجل هذه الليلة المقدسة؛ ليلة رأس السنة.. وقنان الشراب غالبا ما تنفذ بسرعة في مثل هذا الموسم المكتظ.. وفي غفلة من الثلوج سمعت أبواق سيارة تتوقف فجأة خلفي مع صرير احتكاك

العجلات بالأرض.. وثم صياح رهيب بجانبي.. كنت أراقبه وهو ثائر عبر الزجاج العاتم غير الناقل للرؤية من الخلف.. تريثت قليلا ثم نزلت ببطء شديد وكنت أعي تماما أن لباسا مثل هذا وفي جو مثل هذا والزينة التي كنت أرتديها كفيلة لترويضه كحيوان سرك متوحش.. مثلت دور الخجل والحياء بإتقان وقمت بتمرير كلمات إعتذار رقيقة جعلته يسكن مكانه.. أشكرك مرة أخرى على مساعدتك لي هه.. وكان شكري في لحظتها عبر تعريف نفسي باسم "فيرونيكا ألبا"

وبعدها قمت بدعوته هو الآخر في هذا الوقت.. وفي هذا المكان..!

افترقنا لحظتها وتركته خلفي وذهبت في الطريق السريع متوجهة إلى حفلة رافاييل، كان البابا متواجدا هناك؛ وقد كنت أدرك هذا.. مرت دقائق قليلة حتى وصلت أخيرا.. وجدت رافاييل واقفا عند مدخل المنزل يستقبل الحضور.. قمت بعناقه وتقبيله وتلوت بضع كلمات على مسامعه أردته طريح الفرح بشكل مجنون كمريض نفسي.. كنت قد أخبرته بحبي له الذي كان يريد

سماعه مني قبل مدة.. وفي تلك البرهة من الحديث زدت عليها هذا الموعد في منزله في هذا الوقت ولم يكن ليرفض لي طلبا طبعا.. دخلت عبر تلك الجماهير الحافلة ورحت أتجول بينهم.. نظرت في أماكن مختلفة باحثة عنه.. اين هو؟ وفجأة تتصادف حدقة عيني به جالسا وحيدا بعيدا هناك.. إنه البابا.. اتجهت صوبه بروحي المرحة وهنا في هذه الحفلة كان اسمي "ماري بارمسترونغ"، هذا ليس اسمي الحقيقي أيضا.. بل اسم مستعار كان مسموح استعماله في نادي الرسم والفنون في الجامعة أين تعرفت على رافاييل حينها.. رقصنا بمتعة أنا وهذا الذئب الذي يمثل الدين باسم البابا ورحنا نتمايل بجنون هنا وهناك.. وبين ترنمات الموسيقى وحلقة الرقص عرضت عليه طلبا بسيطا.. ما هو؟ أني أدعوه إلى منزل ريفي لسهرة مع بعض الصديقات أردت مفاجأتهن بطرفة خفيفة مرعبة وبعدها تبقى الليلة لنا وحدنا لنختلي فيها ببعضنا حتى الصباح.. ما هو الطلب؟ تعرفون أن البابا متمرد قليلا.. وهذا ما كان ملعوب لصالحي.. في أحد كتائب المافيا التابعة إليه سمعت أنهم قاموا بجلب نوع جديد من الأسلحة.. وهو عبوة ناسفة بلا رائحة ولا غازات ظاهرة للعيان.. يمكن اكتشافها بنوع من

المصابيح الخاصة به لتنعكس صورته كألوان الطيف في الجو.. كانت فكرة خطيرة وهو قد قبل التحدي.. وهذه العبوة الناسفة خطورتها تكمن في كونها أنها قابلة للانفجار عبر التفاعل مع أي شرارة إلكترونية قادمة من بعيد.. أي أنهم في معارك المافيا يضعون هذه العبوة الناسفة في الجو كفخ ويضعون هاتف خلوي في ركن ما وما إن يدخل العدو إلى المصيدة يقومون بالاتصال بذلك الهاتف الموضوع في الوسط مما سيخلف كارثة حتمية لقتلهم جميعا وتحويلهم إلى فتات صغير.. على سبيل المثال لو كانت الغرفة مليئة بهذا الغاز..! لا تخافوا فالداتاشو لن يستطيع تفجيرها.. ولكن اتصال ربما كفيل لفعل ذلك.. وعلى سبيل الحقيقة.. هناك هاتف مبرمج ليرن في هذه اللحظات.. نفس اللحظات التي هي الغرفة مليئة بها بهذه الغازات التي أحضرها البابا معه ورشها في الجو على أساس أننا سنلعب لعبة ممتعة مع بعض الأصدقاء عندما نضيء الجو بالمصباح الخاص لكشف الرذاذ وتتحول الغرفة إلى ألوان الشفق القطبي ونبتهج جميعا قبل أن ننصرف أنا وهو للاستمتاع بباقي الليلة لوحدنا..

لا يوجد مكان للهرب من الهلاك.. الهلاك في كل مكان.. وليس هنالك مفر منه؛ صار الأمر ضرورة حتميّة لا مناص منها، هو الآن سيحتويكم في ثوان ليست كافية للهرب من هنا أو حتى التفكير في حلّ مفيد.. كلاوديو وماله وفساده.. البابا ودينه المحرّف والذي يخيطه حسب مقاس الطّالب له ويلويه كيفما شاء.. أليغري وسياسته التي تقف ضد الشباب.. رافاييل خياناته، نفاقه، كذبه والكثير من الخطايا..

"دانا ورامو" العاشقان الجديدان قد نجحا في الخروج عن الطبيعة وكسر لعبتكم القذرة بطريقة فكرية.. والموت سيحتوينا على كل حال.. ربّما خمس ثواني أو أقل وسيرنّ الهاتف ويحدث الانفجار الكبير في أجزاء من أجزاء الثانية.. أو ربّما أقل..!

ليست الثورة هي الحل الوحيد من أجل الظفر بالحرية.. قليل من العقل كفيل لفعل ذلك...

وداعا..

***

خمس ثواني لم تكن إلا لتك النظرات الواسعة والمرتعبة.. وكأنّ المشهد بالعرض البطيء بموسيقى ملحمية غامضة، يحاول الرجال الخروج من باب الغرفة كقطيع صغير من الخرفان المتضارب ولكن تلك الثواني انقضت بسرعة مخلفة إياهم عظم ولحم محترق.. لن تستطيع التعرف على أية جثة منهم وتميزها عن مثيلتها؛ هم الآن أشلاء مشوهة مترامية وكأنّ قنبلة نووية قد سخطت هنا..

لهب في كل مكان، رائحة احتراق الجثث وطعم الحرية في الأخير..

***

يقرع الباب فجأة..! يدخل الملازم محمّلا بكومة من الملفّات والأوراق.. ألقى تحيّة روتينية لرجال الشرطة وقام بالفصح عن مجريات التحقيق:

سيدي! هذا الملف يخصّ الانفجار الذي حدث ليلة أمس في الغابة بالمنزل الريفي.. وجدوا جثثا لأربعة رجال وللأسف لم يتم تحديد هويتهم لاحتراقهم

بشكل رهيب وتشوّههم بالكامل.. كما أننا لم نجد أي دليل أو أثار قنبلة ما أو أيّ سلاح آخر.. وهذا ما يدعنا نقول بأن الأمر كان حادثة طبيعية بشكل مؤكّد.. لأن الكهرباء تالفة قليلا هناك وربما هي السّبب الوحيد لكل هذا.. مع ذلك ما يزال رجالنا هناك يتابعون معاينة المكان..

هل تأمر بتكثيف البحث أم بإغلاق الملفّ سيّدي؟

فرك المحقّق لحيته قليلا مفكّرا ثمّ قال:

-دعني ألقي نظرة شخصية على الملفات علّني أجد ثغرة ما أنطلق منها.. وعلى كلّ حال قم بإغلاق القضيّة في الوقت الرّاهن..

يمكنك الذهاب الآن وسأستدعيك في وقت لاحق..

*** تمــــت ***